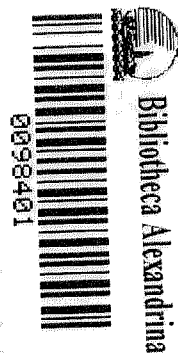


محمد بن قاسم

فدك

في التاريخ



دار المعارف للطباعة
بيروت - لبنان

فنه

محمد باقر الصدر

فذلك

في التاريخ

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م



المكتب : شارع سوريا - ساية دوريش - الطابق الثالث
الادارة والمعرض - حارة حريك - المشية - شارع دكاش - ساية الحسين

تلفون - ٨٣٧٨٥٧
ص ب ٨٦٠١ - ١١

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين • اياك نعبد
واياك نستعين • اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين انعمت عليهم غير
المغضوب عليهم ولا الضالين •

الفهرس

الموضوع	الصفحة
١ - على مسرح الثورة	١٣ - ٢٤
٢ - فسدك	٢٥ - ٣٢
٣ - تاريخ الثورة	٣٣ - ٩٠
٤ - قبسات من الكلام الفاطمي	٩١ - ١١٠
٥ - محكمة الكتاب	١١١ - ١٥٢

آبها القارئ الكريم :

هذا إنتاج اغتنمت له عطلة من عطل الدراسة في جامعتنا الكريمة
 - النجف الأشرف - وتوفرت فيها على درس مشكلة من مشاكل التاريخ
 الاسلامي ، وهي مشكلة فذك ، والخصومة التاريخية التي قامت بين
 الزهراء صلوات الله عليها والحليفة الأولى رضي الله تعالى عنه . وكانت
 تتبلور في ذهني استنتاجات وفكر ، فسجلتها على أوراق متفرقة . حتى اذا
 انتهيت من مطالعة مستندات القضية ورواياتها ، ودرس ظروفها ، وجدت
 في تلك الوريقات ما يصلح خميرة لدراسة كافية للمسألة ، فهدبتها ورتبتها
 على فصول ، اجتمع منها كتيب صغير ، وكان في نيتي الاحتفاظ به
 كمذكر عند الحاجة ، فبقي عندي سنين مذكرا ومؤرخا لحياتي الفكرية
 في الشهر الذي تمخض عنه ، غير أن بعض الاخوة (أيدهم الله) طلبوا
 مني طبعه وقد نزلت على رغبتهم تفديرا لهم ولتوفيره في المكتبة العربية
 والاسلامية والكتاب هو ما تراه بين يديك .

(المؤلف)

علم مشرج الثورة

فدونكها مخطومة مرخولة تلقاك
يوم حشرك ، فنعم الحكم الله ،
والزهيم محمد ، والموعد القيامة
وعند الساعة يخسر المبطلون .
الزهراء

عالم مسرح الثورة

وقفت لا يخالجهما شك فيما تقدم عليه ، ولا يطفح عليها موقفها
الرهيب بصباغة من خوف أو ذعر ، ولا يمر على خيالها الذي كان جديا
كل الجد ، تردد في تصببها ، ولا تساورها هاجسة من هواجس القلق
والارتباك ، وها هي الآن في أعلى القمة من استعدادها النبيل ، وثباتها
الشجاع على خطتها الطموح ، وأسلوبها الدفاعي ، فقد كانت بين بايين
لا يتسعان لتردد طويل ، ودرس عريض ، فلا بد لها من اختيار أحدهما
وقد اختارت الطريق المتعب من الطريقين الذي يشق سلوكه على المرأة
بطبيعتها الضعيفة لما يكنفه من شدائد ومصاعب تتطلب جرأة أدبية ،
وملكة بانية مؤثره ، وقدرة على صب معاني الثورة كلها في كلمات وبراعة
فنية في تصور النجمة ونقد الأوضاع القائمة تصويرا ونقدا يجعلان في
الالفاظ معنى من حماء ، وحظا من خلود ، لتكون الحروف حنود الثورة
الخيرة ، وسندها الحالد في تاريخ العفدة ، ولكنه الايمان والاستبسال
في سبل الحق الذي بعب في النفوس الضعيفة نفائصها ، ويفجر في
الطبائع المخدولة قوة لا تتعرض لضعف ولا تردد .

ولذا كان اختيار النائرة لهذا الطريق مما بوافق طبعها ، وبلتئم مع
شخصيتها المركزة على الانتصار للحق ، والاندفاع في سبيله .

وكانت حولها نموة منعددات من خفدها ونساء قومها كالمحوم

المتناثرة يلتفتن بها بغير انتظام ، وهن جميعا سواسية في هذا الاندفاع والالتياح ، وقائدتهن يبينهن تستعرض ما ستقدم عليه من وثبة كريمة تهيم لها العدة والذخيرة ، وهي كلما استرسلت في استعراضها ازدادت رباطة جأش ، وقوة جنان ، وتضاعفت قوة الحق النبي تعمل في نفسها ، واشتدت صلابة في الحركة ، وانبعاثا نحو الدفاع عن الحقوق المسلوقة ، ونشاطا في الاندفاع ، وبسالة في الموقف الرهيب ، كأنها قد استعارت في لحظتها هذه قلب رجلها العظيم ، لتواجه به ظروفها القاسية وما حاكت لها يد القدر أستغفر الله بل ما قدر لها المقدر الحكيم من مأساة مروعة تهد الجبل وتزلزل الصعب الشامخ .

وكانت في لحظتها الرهيبة التي قامت فيها بدور الجندي المدافع شجرا قائما ترسم عليه سحابة حزن مرير ، وهي شاحبة اللون ، غابسة الوجه ، مفجوعة القلب ، كاسفة البال منهدة العمد ، ضعيفة الجانب ، مائعة الجسم ، وفي صميم نفسها ، وعميق فكرها المتأمل اشعاع بهجة ، واثارة طمأنينة ، وليس هذا ولا ذلك اسنعدابا لأمل باسم ، أو ساء الى حلم لذيد ، أو استقبالا لنسيجة حسنة مترقبة ، بل كانت الاشعاعه اشعاعه رصا بالفكرة ، والاستبشار بالثورة . وكانت الطمأنينة ثقة بنجاح ، لا هذا الذي نفينا بل على وجه آخر ، وان في بعض الفشل الآجل ايجبا لنجاح عظيم وكذلك وقع ، فقد قامت أمة برمتها تقدر هذه الثورة الفائزة بل تسند منها ثباتها واستبسالها في هذا الثبات .

ودفعتها أفكارها في وقتها تلك الى الماضي القريب يوم كانت موجات السعادة تلعب بحياتها السعيدة . وبوم كانت نفس أبها يصعد . ونسمة يهبط . وكان بيتها فطب الدولة العنيد . ودعامة المجد الراسخة المهينة على الزمن الخاشع المطيع .

ولعل أفكارها هذه ساقتها الى تصور أيها (صلى الله عليه وآله) وهو يضمها الى صدره الرحيب ، ويحوطها بحنانه العبقري ، ويطبع على فمها الطاهر قبلاته التي اعتادتها منه ، وكانت غذاءها صباحا ومساء .

ثم وصلت الى حيث بلغت سلسلة الزمن فيواجهها الواقع العابس واذا بالزمان غيز الزمان وها هو بيتها مشكاة النور ورمز النبوة والاشعاع المتألقة المحلقة بالسماء مهدد بين الفينة والفينة ، وها هو ابن عمها الرجل الثاني في دنيا الاسلام باب علم النبوة ، ووزيرها المخلص ، وهارونها المرجى ، الذي لم يكن لينفصل ببدايته الطاهرة عن بداية النبوة المباركة فهو ناصرها في البداية ، وأملها الكبير في النهاية ، يخسر أخيرا خلافة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وتقوض معنوياته النورية التي شهدت لها السماء والأرض جميعا ، وتسقط سوابقه الفذة عن الاعتبار ببعض المقاييس التي تم اصطلاحها في تلك الاحايين .

وهنا بكت بكاء شقيا ما شاء الله لها أن نبكي ، ولم يكن بكاء بمعناه الذي يظهر على الأسارير ، ويخيم على المظاهر ، بل كان لوعة الضمير ، وارتياح النفس ، وانتفاضة الحشرات في أعماق القلب ، وختمت طوافها الأليم هذا بعبرنين نضتا من مقلتيها .

ثم لم تطل وقفتها ، بل اندفعت كالشرارة الملتهبة وحولها صويجباتها حتى وصلت الى ميدان الصراع ، فوفقت وقفتها الخالدة ، وأثارت حربها الذي استعملت فيه ما يمكن مباشرته للمرأة في الاسلام ، وكادت ثورتها البكر أن تلهم الخلافة لولا أن عاكسها شذوذ الطرف ، وتناثرت امامها العقبات .

★ ★ ★

تلك هي الحوراء الصديفة فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه

وآله وسلم) ربحانة النبوة ، ومثال العصاة ، وهالة النور المشعة ، وبقية الرسول بين المسلمين — في طريقها الى المسجد — وقد خسرت أبوة هي أزهى الأبوات في تأريخ الانسان ، وأفيضها حنانا ، وأكثرها اشفاقا ، وأوفرها بركة .

وهذه كارثة من شأنها أن تذيق المصاب بها مرارة الموت أو أن تظهر له الموت حلوا شهيا ، وأملا نيرا .

وهكذا كانت الزهراء حينما لحق أبوها بالرفيق الأعلى ، وطارت روحه الفرد الى جنان ربها راضية مرضية .

ثم لم تتف الحوادث المرة عند هذا الحد الرهيب ، بل عرضت الزهراء لخطب آخر قد لا يقل تأثيرا في نفسها الطهور ، وإيقادا لحزنها ، واذكاء لأساها عن الفاجعة الأولى كثيرا وهو خسارة المجد الذي سجلته السماء لبیت النبوة على طول التاريخ ، وأعني بهذا المجد العظيم سيادة الأمة وزعامتها الكبرى ، فقد كان من تشريعات السماء أن يسوس آل محمد (صلى الله عليه وآله) أمته وشيعته ، لأنهم مشتقاته ومصفرائه ، وإذا بالتقدير المعاكس يصرف مراكز الزعامة عن أهلها ، ومناصب الحكم عن أصحابها ، ويرتب لها خلفاء وأمرأ من عند نفسه .

وبهذا وذاك خسرت الزهراء أقدس النبوات والأبوات ، واخلد الرئاسات والزعامات بين عشية وضحاها ، فبعثتها نفسها المطوقة بأفاق من الحزن والأسف الى المعركة ومجالاتها ، ومباشرة الثورة والاستمرار عليها والحقيقة التي لا شك فيها ان أحدا ممن يوافقها على مبدئها ونهضتها لم يكن يمكنه أن يقف موقفها ، ويستبسل استبسالها في الجهاد الا وأن يكون أكلة باردة ، وطعمة رخيصة للسلطات الحاكمة التي كانت قد بلغت يومذاك أوج الضغط والشدة . فعلى الإشارة عتاب ، وعلى القول حساب

وعلى الفعل عقاب ، فلم يكن ليختلف عما نصطلح عليه اليوم بالاحكام
العرفية ، وهو أمر ضروري للسلطات يومئذ في سبيل تدعيم أساسها ،
وتثبيت بنيانها •

أما إذا كان القائم المدافع بنت محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)
وبضعته وصورته الناضرة • فهي محفوظة لا خوف عليها بلا شك ، باعتبار
هذه النبوة المقدسة ، ولما للمرأة في الاسلام عموما من حرمان وخصائص
تمنعها وتحميها من الاذى •



مستمسكات الثورة :

ارتفعت الزهراء بأجنحة من خيالها المطهر الى آفاق حياتها الماضية
ودنيا أيها العظيم التي استجالت حين لحق سيد البشر بربه الى ذكرى في
نفس الحوراء متألفة بالنور تمد الزهراء في كل حين بألوان من الشعور
والعاطفة والتوجه ، وتشيع في نفسها ضروبا من البهجة والنعيم ، فهي وان
كانت قد تأخرت عن أيها في حساب الزمن أياها أو شهورا ، ولكنها لم
تنفصل عنه في حساب الروح والذكرى لحظة واحدة •

واذن ففي جنبها معين من القوة لا ينبض ، وطاقة على ثورة
كاسحة لا تخمد ، وأضواء من نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) ونفس
محمد تنبر لها الطريق ، وتهديها سواء السبيل •

وتجردت الزهراء في اللحظة التي اختمرت فيها ثورة نفسها عن دنيا
الباس ، واتجهت بمشاعرها الى تلك الذكرى الحية في نفسها لتستمد منها
قبسا من نور في موقفها العصيب ، وصارت تنادي : —

الي يا صور السعادة التي أفقت منها على شقاء لا يصطبر عليه ••

الي يا أعز روح علي ، وأحبها الي •• حدثيني وأفيضي علي من نورك الالهي • كما كنت تصنعين معي دائما •

الي يا أبي أناجيك ان كانت المناجاة تلذ لك ، وابثك همومي كما اعتدت أن أفعل في كل حين ، وأخبرك ان تلك الظلال الظليلة التي كانت تقيني من لهيب هذه الدنيا لم يعد لي منها شيء •
قد كان بعدك أنباء وهنبشة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

الي يا ذكريات الماضي العزيز حدثيني حديثك الجذاب ووردي علي مسامعي كل شيء لا تثيرها حربا لا هوادة فيها على هؤلاء الذين ارتفعوا أو ارتفع الناس بهم الي منبر أبي ومقامه ، ولم يعرفوا لآل محمد (صلى الله عليه وآله) حقوقهم ، ولا لبيتهم حرمة تصونه من الاحراق والتخريب ، ذكريني بمشاهد أبي وغزواته ألم يكن يقص علي ألوانا من بطولة أخيه وصهره وأستبساله في الجهاد ، وتفوقه على سائر الانداد ، ووقوفه الي صف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أشد الساعات ، وأعنف المعارك الني فر فيها فلان وفلان وتقاصر عن اقتحامها الشجعان أيصح بعد هذا أن نضع أبا بكر على منبر النبي وننزل بعلي عما يستحق من مقام •

خبريني يا ذكريات أبي العزيز أليس أبو بكر هو الذي لم يأنم له الوحي على تبليغ آية الي المشركين ؟ • وانتخب للمهمة عليا فماذا يكون معنى هذا ان لم يكن معناه ان عليا هو الممثل الطبيعي للاسلام الذي يجب أن تستند اليه كل مهمة لا يتيسر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرتها •

اني لا تذكر بوضوح ذلك اليوم العصيب الذي أرجف فيه المرجفون لما استخلف أبي عليا على المدينة وخرج الي الحرب ، فوضعوا لهذا

الاستخلاف ما شاؤا من تفاسير ، وكان علي ثابتا كالطود لا تزغزه
 مشاغبات المشاغبين ، وكنت أحاول أن يلتحق بأبي ليحدثه بحديث الناس
 وأخيرا لحق بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم رجع متهلل الوجه
 ضاحك الاسارير ، تحمله الفرحة الى قرينته الحبيبة ليزف اليها بشرى
 لا بمعنى من معاني الدنيا بل بمعنى من معاني السماء • فقص علي كيف
 استقبله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورحب به وقال له : انت مني
 بنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي ^(١) وهارون موسى كان
 شريكا له في الحكم ، واما لأمتي ، ومعدا لخلافته ، فلا بد ان يكون
 هارون محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وليا للمسلمين وخليفته فيهم من
 بعده •

ولما وصلت الى هذه النقطة من افكارها المتدفقة صرخت ان هذا
 هو الانقلاب الذي انذر الله تعالى في كتابه اذ قال : (وما محمد الا رسول
 قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم) • فها
 هم الناس قد انقلبوا على اعقابهم • واستولى عليهم المنطق الجاهلي الذي
 تبادل الحزبان في السقيفة حين قال احدهما نحن اهل العزة والمنعة ،
 واولوا المدد والكثرة ، واجابه الآخر : من ينازعنا سلطان محمد (ص)
 ونحن اولياؤه وعترته وسقط الكتاب والسنة في تلك المقاييس ثم اخذت
 تقول :

يا مباديء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) التي جرت في عروقي
 منذ ولدت كما يجري الدم في العصب ، ان عمر الذي هجم عليك في بيتك
 المكي الذي اقامه النبي مركزا لدعوته قد هجم على آل محمد (صلى الله
 عليه وآله وسلم) في دارهم واشعل النار فيها او كاد ••

(١) ورد حديث المنزلة في صحيح البخاري ومسلم وخصائص النسائي
 ومستدرک الحاكم وجامع الترمذي ومروج الذهب •

يا روح امي العظيمة انك القيت علي درسا خالدا في حياة النضال
الاسلامي بجهادك الرائع في صف سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم)
وسوف أجمل من نفسي خديجة علي في محنته القائمة •

لبيك لبيك يا أماء اني أسنغ صوتك في اعناق روحي يدفعني الى
مقاومة الظالمين •

فسوف أذهب الى أبي بكر لأقول له لقد جئت شيئا فريا ، فدونها
مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله ، والزعيم محمد ،
والموعد القيامة ، ولأنه المسلمين الى عواقب فعلتهم والمستقبل القائم الذي
بنوه بأيديهم وأقول : لقد لقحت فنظرة ريشا تحلب ، ثم احتلبوها طلاع
القعب دما عبيطا ، وهناك يخسر المبطلون • ويعرف التالون ، غب ما
أسس الاولون •

ثم اندفعت الى ميدان العمل وفي نفسها مبادئ محمد (صلى الله عليه
وآله وسلم) وروح خديجة ، وبطولة علي • واشفاق عظيم على هذه الامة
من مستقبل مظلم •

* * *

طريق الثورة :

لم يكن الطريق الذي اجتازته الثائرة طويلا، لان البيت الذي انبعث
منه شرر الثورة ولهيها هو بيت علي (ع) بالطبع الذي كان يصطليح عليه
رسول الله (صلى الله عليه وآله) بيت النبوة وهو جار المسجد لا يفصل
بينهما سوى جدار واحد ، فلعلها دخلته من الباب المتصل به ، والمؤدي
اليه من دارها مباشرة ، كما يمكن أن يكون مدخلها الباب العام ولا يهنا
تعيين أحد الطريقين ، وان كنت أرجح انها سلكت الباب العام لأن

سياق الرواية الماريجة التي حك لنا هذه الحركة الدفاعية يشعر بهذا فان دخولها من الباب الخاص لا يكلفها سبرا في نفس المسجد ولا اجتياز طريق بينه وبين بيتها ، فمن أبر للراوي أن يصف مشيها ، وينعته بأنه لا يخرم مشية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو لم يكن معها بالطبع ، ولو تصورنا انها سارت في نفس المسجد ، فلا ينهي سيرها بالدخول على الحليفة ، وانما ابتدئ بذلك ، لأن من دخل المسجد صدق عليه انه دخل على من فيه ، وان سار في ساحته مع أن الراوي يجعل دخولها على أبي بكر متعفا لمشيتها ، وهذا وغيره يكون قرينة على ما اسنقريناه .

★ ★ ★

النسوة :

وتدانا الرواية على ان الزهراء كانت تصحبها معها نسوة من قومها وحفدتها كما سبق ذكره ومرد هذه الصحبة ، وذلك الاختيار للباب العام الى أمر واحد ، وهو تنبيه الناس ، وكسب التفاتهم باجتيازها في الطريق مع تلك النسوة ليجتمعوا في المسجد ، ويتهافتوا حيث ينتهي بها السير بقصد التعرف على ماتريده وتعزم عليه من قول أو فعل ، وبهذا تكون المحاكمة علنية تعيها اسماع عامة المسلمين في ذلك الوسط المضطرب .

ظاهرة :

سبق ان الرواية التاريخية جاءت تنص على أن الزهراء لم تكن لتخرم في مشيتها مشية أبيها (صلى الله عليه وآله وسلم) . ويتسع لنا المجال لفلسفة هذا التقليد الدقيق فلعله كان طبيعة قد جرت عليها في موقفها هذا بلا تكلف ولا اعتناء خاص ، وليس هذا ببعيد فانها صلوات الله عليها قد اعتادت ان تقلد اباه وتحاكيه في سائر

افعالها واقوالها ، ويحتمل ان يكون لهذه المشابهة المتقنة وجه آخر بأن كانت الحوراء قد عملت في موقفها يومذاك الى تقليد ايها في مشيه عن التفات وقصد فأحكمت التمثيل واجادت المحاكاة ، فلم تكن لتخرم مشية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأرادت بهذا ان تستولي على المشاعر واحساس الناس وعواطف الجمهور بهذا التقليد الباهر الذي يدفع بأفكارهم الى سفر قصير ، وتجول لذيذ في الماضي القريب حيث عهد النبوة المقدس . والأيام الضواحك التي قضوها تحت ظلال نبهم الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) فيكون في ارهاق هذه الاحساسات وصقلها صقلا عاطفيا ما يمهّد للزهراء الشروع في مقصودها . ويوطئ القلوب لتقبل دعوتها الصارخة واستجابة استفادها الحزين ، ونجاح محاولتها الياسة أو شبه الياسة .

★ ★ ★

ولذا ترى ان الراوي نفسه أثرت عليه هذه الناحية أيضا من حيث يشعر او لا يشعر ، ودفعه تأثره هذا الى تسجيلها فيما سجل من تصوير الحركة الفاطمية .

صرخة باركتها الزهراء ، ورعتها السماء فكانت عند اندلاعها محط الثقل الذي تركز عنده الحق المذبوح ، والمحاولة الياسة التي شاعت حولها ابتسامات أمل استحال بعد انتهائها الى عبوس مرير ، ويأس ثابت ، واستسلام فرضته حياة الناس الواقعة يومذاك .

ثورة لم تكن لتقصد بها الثائرة نتيجة لها على ما يطرد في الثورات الاخرى بقدر ما كانت تستهدف الى تثبيت الثورة لذاتها وتسجيلها فيما يسجله التاريخ في سطورهِ البارزة فكانت الثورة على هذا بنفسها تؤدي الغرض كاملا غير منقوص ، وهذا ما وقع بالفعل وبه نفس الحكم بنجاحها وان فشلت كما سنوضحه في موقع آخر من هذا الكتاب .

٢

فدك

(بمعناها الحقيقي)

« بلى كانت في أيدينا فدك
من كل ما أظلمته السماء فشحت عليها
نفوس قوم وسخت عنها نفوس
آخرين »

(قرين الزهراء)

أمير المؤمنين

(بمعناها الرمزي)

الحد الاول : (لفدك) عدن
والحد الثاني : سمرقند
والثالث : افريقية •
والرابع : سيف البحر مما يلي الجزر
وارمينية •

(حفيد الزهراء)

الامام موسى بن جعفر

فدك

فدك : قرية في الحجاز ، بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة وهي أرض يهودية في مطلع تأريخها المأثور . وكان يسكنها طائفة من اليهود ، ولم يزلوا على ذلك حتى السنة السابعة حيث قذف الله بالرب في قلوب أهلها فصالحوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) على النصف من فدك وروي انه صالحهم عليها كلها .

وابتدأ بذلك تاريخها الاسلامي ، فكانت ملكا لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنها مما لم يوحف عليها بخيل ولا ركاب ، ثم قدمها لابنته الزهراء ، وبقيت عندها حتى توفي أبوها (صلى الله عليه وآله) فاتتزعها الخليفة الأول (رضي الله عنه) - على حد تعبير صاحب الصواعق المحرقة - وأصبحت من مصادر المالية العامة وموارد ثروة الدولة يومذاك حتى تولى عمر الخلافة فدفعت فدكا الى ورثة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبقيت فدك عند آل محمد (صلى الله عليه وآله) الى أن تولى الخلافة عثمان بن عفان فاقطعها مروان بن الحكم على ما قيل ، ثم يهمل التاريخ أمر فدك بعد عثمان فلا يصرح عنها بشيء . ولكن الشيء الثابت هو ان أمير المؤمنين عليا انتزعها من مروان على تقدير كونها عنده في خلافة عثمان - كسائر ما نهبه بنو أمية في ايام خليفتهم - .

وقد ذكر بعض المدافعين عن الخليفة في مسألة فدك أن عليا لم

يدفعها عن المسلمين بل اتبع فيها سيرة أبي بكر فلو كان يعلم بصواب الزهراء وصحة دعواها ما انتهج ذلك المنهج •

ولا أريد أن أفتح في الجواب بحث التقية على مصراعيه وأوجه بها عمل أمير المؤمنين ، وإنما امنع أن يكون أمير المؤمنين (ع) قد سار على طريقة الصديق ، فإن التأريخ لم يصرح بشيء من ذلك بل صرح بأن أمير المؤمنين كان يرى فدكا لأهل البيت ، وقد سجل هذا الرأي بوضوح في رسالته الى عثمان بن حنيف كما سيأتي •

فمن الممكن انه كان يخص ورثة الزهراء وهم اولادها وزوجها بحاصلات فدك وليس في هذا النخصيص ما يوجب اشاعة الخبر لأن المال كان عنده وأهله الشرعيون هو واولاده كما يحتل انه كان ينفق غلاتها في مصالح المسلمين برضى منه ومن اولاده عليهم الصلاة والسلام^(١) بل لعلهم أوقفوها وجعلوها من الصدقات العامة •

ولما ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة أمعن في السحرية وأكثر من الاستخفاف بالحق المهضوم فأقطع مروان بن الحكم ثلث فدك وعمر بن عثمان ثلثها ، ويزيد ابنه ثلثها الآخر ، فلم يزالوا يتداولونها حتى خلصت كلها لمروان بن الحكم أيام ملكه ثم صفت لعمر بن عبد العزيز بن مروان فلما تولى هذا الامر رد فدكا على ولد فاطمة عليها السلام وكتب الى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك فكتب اليه ان فاطمة عليها السلام قد ولدت في آل عثمان وآل فلان وفلان فعلى من أرد منهم ؟ فكتب اليه : أما بعد ، فاني لو كتبت اليك أمرك أن تذبح

(١) وهذا اقرب الاحتمالات ، لان الاول تنفيه رسالة أمير المؤمنين الى عثمان بن حنيف ان يقول : وسخت عنها نفوس آخرين • والثالث يبعده قبول الفاطميين فيما بعد لفدك عند ما أعطيت اليهم في فرص متباعدة •

بقرة لسألتني ما لونها فاذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة عليها السلام من علي عليه السلام ، فنقمت بنو امية ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه وقالوا له : هجنت فعل الشيخين وقيل : انه خرج اليه عمر بن قيس في جماعة من اهل الكوفة فلما عابوه على فعله قال لهم انكم جهلتم وعلمت ونسيتم وذكرتم ان ابا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم حدثني عن أبيه عن جده ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : فاطمة بضعة مني يسخطها ما يسخطني ، ويرضيني ما أرضاها ، وان فذك كانت صافية على عهد ابي بكر وعمر ثم صار امرها الى مروان فوهبها لعبد العزيز أبي فورتها أنا واخوتي عنه فسألتهم ان يبيعوني حصتهم منها فمن بلأع وواهب حتى استجبت لي فرأيت ان اردھا على ولد فاطمة فقالوا له : فان أبيت الا هذا فامسك الاصل واقسم الغلة ، ففعل .

ثم انتزعھا يزيد بن عبد الملك من اولاد فاطمة فصارت في أيدي بني مروان حتى انقرضت دولتهم .

فلما قام أبو العباس السفاح بالأمر وتقلد الخلافة ردها على عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ثم قبضها أبو جعفر المنصور في خلافته من بني الحسن وردها المهدي بن المنصور على الفاطميين ثم قبضها موسى بن المهدي من أيديهم .

ولم تزل في أيدي العباسيين حتى تولى المأمون الخلافة فردها على الفاطميين سنة (٢١٠) وكتب بذلك الى قثم بن جعفر عامله على المدينة : أما بعد ، فان أمير المؤمنين بمكانه من دين الله وخلافة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) والقربة به أولى من استن بسنته وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة منحته وصدقته وبالله توفيق أمير المؤمنين وعصمته واليه في العمل بما يقربه اليه رغبته ، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أعطى فاطمة بنت رسول الله فذك وتصدق بها عليها وكان ذلك أمرا ظاهرا

معروفا لاختلاف فيه بين آل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم تدع منه ما هو أولى به من صدق عليه فرأى أمير المؤمنين أن يردّها الى وراثتها ويسلمها اليهم تقربا الى الله تعالى ، باقامة حقه وعدله والى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بتنفيذ أمره وصدقته فأمر باثبات ذلك في دواوينه والكتاب الى عماله فلئن كان ينادي في كل موسم بعد ان قبض نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يذكر كل من كانت له صدقة أو هبة أو عدة ذلك فيقبل قوله وتنفذ عدته ان فاطمة رضي الله عنها لأولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لها وقد كتب أمير المؤمنين الى المبارك الطبري مولى أمير المؤمنين يأمره برد فذلك على ورثة فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة اليها وما فيها من الرقيق والغلات وغير ذلك وتسليمها الى محمد ابن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب لتولية أمير المؤمنين اياهما القيام بها لأهلها . فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين وما ألهمه الله من طاعته ووفقه له من التقرب اليه والى رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأعلمه من قبلك وعامل محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامل به المبارك الطبري واعنهما على ما فيه عمارتها ومصلحتها ووفور غلاتها ان شاء الله والسلام .

ولما بويع المتوكل على الله انتزعها من الفاطميين واقطعها عبد الله ابن عمر البازيار وكان فيها احدى عشرة نخلة غرسها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بيده الكريمة فوجه عبد الله بن عمر البازيار رجلا يقال له : بشران بن أبي أمية الثقفي الى المدينة فصرم تلك النخيل ثم عاد ففلج .

وينتهي آخر عهد الفاطميين بفدك بخلافة المتوكل ومنحه اياها عبد الله بن عمر البازيار .

هذه المأمة مختصرة بتاريخ فذك المضطرب الذي لا يستقيم على خط ولا يجمع على قاعدة ، وانما حاكت اكثره الأهواء ، وصاغته الشهوات على ما اقتضته المطامع والسياسات الوقتية ، وعلى هذا فلم يخل هذا التاريخ من اعتدال واستقامة في أحيان مختلفة ، وظروف متباعدة حيث توكل فذك الى اهلها واصحابها الاولين ويلاحظ ان مشكلة فذك كانت قد حازت أهمية كبرى بنظر المجتمع الاسلامي وأسياده ، ولذا ترى حلها يختلف باختلاف سياسة الدولة ، ويرتبط بانجاه الخليفة العام نحو اهل البيت مباشرة فهو اذا استقام اتجاهاه ، واعتدل رأيه ، رد فذكا على الفاطميين ، واذا لم يكن كذلك وقع انتزاع فذك في اول القائمة من أعمال ذلك الخليفة .

ويدلنا على مدى ما بلغته فذك من القيمة المعنوية في النظر الاسلامي قصيدة دعبل الخزاعي التي انشأها حينما رد المأمون فذكا ومطلعها : -
أصبح وجه الزمان قد ضحكا برد مأمون هاشم فذكا

وقد بقيت كلمة بسيطة وهي ان فذكا لم تكن أرضا صغيرة أو مزرعا متواضعا كما يظن البعض، بل الامر الذي أطمئن اليه أنها كانت تدر على صاحبها اموالا طائلة تشكل ثروة مهمة وليس علي بعد هذا أن أحدد الحاصل السنوي منها وان ورد في بعض طرقنا الارتفاع به الى اعداد عالية جدا .

ويدل على مقدار القيمة المادية لفذك أمور - :
(الاول) : ما سيأتي من أ ن عمر منع ابا بكر من ترك فذك للزهاء لضعف المالية العامة مع احتياجها الى النفوية لما يتهدد الموقف من حروب الردة وثورات العصاة .

ومن الجلي أن أرضا يستعان بحاصلاتها على تعديل ميزانية الدولة، وتقوية مالياتها في ظروف حرجة كظرف الثورات والحروب الداخلية لا بد انها ذات نتاج عظيم .

(الثاني) : قول الخليفة لفاطمة في محاورة له معها حول فذك :
ان هذا المال لم يكن للنبي (صلى الله عليه وسلم) وانما كان مالا من اموال المسلمين يحمل النبي به الرجال وينفقه في سبيل الله فان تحصيل الرجال لا يكون الا بمال مهم تنقوم به نفقات الجيش .

(الثالث) : ما سبق من تقسيم معاوية فدكا اثلاثا ، واعطائه لكل من يزيد ومروان وعمرو بن عثمان ثلثا ، فان هذا يدل بوضوح على مدى الثروة المجتناة من تلك الارض ، فانها بلا شك ثروة عظيمة تصلح لأن توزع على امراء ثلاثة من اصحاب الثراء العريض والاموال الطائلة .

(الرابع) : النعير عنها بقرية كما في معجم البلدان ، وتقدير بعض نخيلها بنخيل الكوفة في القرن السادس الهجري كما في شرح النهج لابن أبي الحديد .

- ٣ -

تاريخ الثورة

قد كان بعدك انباء ومنبئة لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب
أبدت رجال لنا نجوى صدورهم لما مضيت وحالت دونك الترب

★ ★ ★

صبت علي مصائب لو انها صبت علي الايام صرن لياليا
قد كنت ارتع تحت ظل محمد لا اختشي ضيما وكان جماليا
واليوم اخضع للذليل واتقي ضيمي وأدفع ظالمي بردائيا
(الزهاء)

تاريخ الثورة

إذا كان التجرد عن المرتكزات والأنماذ في الحكم والحريّة في التفكير شروطاً للحياة الفكرية المنتجة ، وللمبراعة الفنية في كل دراسة عقلية مهما يكن نوعها ، ومهما يكن موضوعها ، فهي أهم الشروط الأساسية لإقامة بناء تاريخي محكم لقضايا أسلافنا ترتسم فيه خطوط حياتهم التي صارت ملكاً للتأريخ ، ويصور عناصر شخصياتهم التي عرفوها في أنفسهم أو عرفها الناس يومئذ فهم ، ويتسع لتأملات شاملة لكل موضوع من موضوعات ذلك الزمن المنصرم يتعرف بها على لونه التاريخي والاجتماعي ووزنه في حساب الحياة العامة أو في حساب الحياة الخاصة التي يعنى بها الباحث وتكون مداراً لبحثه كالحياة الدينية والأخلاقية والسياسية إلى غير ذلك من النواحي التي بألف منها المجتمع الإنساني على شرط أن نستمد هذه التأملات كيانهما النظري من عالم الناس المنظور لا من عالم نبتدئه العواطف والمرتكزات ، وننشئه النعبد والتقليد لا من خيال مجنح يرتفع بالتوافه والفساد إلى الذروة ، ويبنى عليها ما شاء من تحقيق وتناجح . لا من قنود لم يستطع الكاتب أن يتحرر عنها لبتأمل ويفكر كما تشاء له أساليب البحث العلمي النزيه .

وأما إذا جئنا للتاريخ لا لنسجل واقع الأمر خيراً كان أو شراً ولا لنجس دراستنا في حدود من مناهج البحث العلمي الخالص ولا لنجمع الاحتمالات والتقديرية التي يجوز افتراضها لبسقط منها على محك البحث

ما يسقط ويبقى ما يليق بالتقدير والملاحظة ، بل لنستلهم عواطفنا وموروثاتنا ونستمد من وحيها الاخذ تاريخ اجيالنا السابقة ، فليس ذلك تاريخاً لأولئك الاشخاص الذين عاشوا على وجه الارض يوماً ما وكانوا بشرا من البشر تتنازعهم ضروب شتى من السعور والاحساس ، وتخلج في ضمائرهم ألوان مختلفة من نوازع الخير ونزعات الشر ، بل هو ترجمة لأشخاص عاشوا في ذهننا وطارت بهم نفوسنا الى الآفاق العالية من الخيال .

فاذا كنت تريد ان تكون حراً في تفكيرك ، ومؤرخاً لدنيا الناس لا روائياً يستوحى من دنيا ذهنه ما يكتب ، وضع عواطفك جانبا أو اذا شئت فاملاً بها شعاب نفسك فهي ملكك لا بنازعك فيها أحد ، واستثن تفكيرك الذي به تعالج البحث فانه لم يعد ملكك بعد ان اضطلعت بمسؤولية التاريخ واخذت على نفسك ان تكون امينا لياتي البحث مستوفيا لشروطه فائماً على اسس صحيحة من التفكير والاستنتاج .

كثيره جد هذه الأسباب التي نجور بين نضاد التاريخ وبين عثرتهم فيما ينقدون وقد اعاد المؤرخون أو أكثر المؤرخين بتعبير اصح ان يقتصروا على ضروب معينة من هندسة الحياة التي يؤرخونها وأن يصوغوا التاريخ صياغة قد بناها فيما الجمال الفني احيانا حينما يتوسع الباحث في انطباعه عن الموضوع ، ولكنها صورة باهتة في أكثر الاحايين ليس فيها ما في دنيا الناس التي تصورهم من معاني الحاذ وشؤونها المدفقة بالسوان من النشاط والحركة والعمل وسوف تجد فيما يأتى املة بمقدار ما يسمع له موضوعنا من الزمن الدقيق الذي ندرسه في هذه الفصول أعني الطرف الذي تلا وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتفررت فيه المسألة الاساسية في تاريخ الاسلام على شكل لا يتغير ، وهي نوع السلطة التي ينبغي أن تتولى أمور المسلمين ..

كلنا نود ان يكون التاريخ الاسلامي في عصره الاول الزاهر طاهرا كل الطهر ، بريئا مما يخالط الحياة الانسانية من مضاعفات الشر ومزالق الهوى ، فقد كان عصرا مشعا بالتاليات الرفيعة ، اذ قام على انشاءه اكبر المنشئين للعصور الانسانية في تاريخ هذا الكوكب على الاطلاق ، وارتقت فيه العقيدة الالهية الى حجب لم ترتق اليه الفكرة الالهية في دنيا الفلسفة والعلم ، فقد عكس رسول الله (صلى الله عليه وآله) روحه في روح ذلك العصر ، فنأثر بها وطبع بطابعها الالهي العظيم ، بل فنى الصفوة من المحمدين في هذا الطابع فلم يكن لهم اتجاه الا نحو المبدع الاعظم الذي ظهرت وتألفت منه انوار الوجود ، واليه تسيير كما كان استاذهم الاكبر الذي فنى الوجود المنبسط كله بين عينيه ساعة هبوط الرسالة السماوية عليه . فلم يكن يرى شيئا ولا يسمع صوتا سوى الصوت الالهي المنبعث من كل صوب وحذب ، وفي كل جهة من جهات الوجود ، وناحية من نواحي الكون يعلن تقليده النارة الكبرى .

ان عصرا نلغى فيه قيمة الفوارق المادية على الاطلاق ، ويستوي فيه الحاكم والمحكوم في نظر القانون ، ومجالاب نفيده ، ويجعل مدار القيمة المعنوية ، والكرامة المحترمة فيه تقوى الله التي هي تطهير روحي ، وصيانة للضمير ، وارتفاع بالنفس الى آفاق من المثالية الرفيعة ، ويحرم في عرفه احرام الغني لأنه غني ، واهانة الفقير لأنه فقير ، ولا يفرق فيه بين الاشخاص الا بمقدار الطاقة الانتاجية (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وتسارع فيه الى الجهاد لصالح انواع الانساني الذي معناه الغاء مذهب السعادة الشخصية في هذه الدنيا ، واخراجها عن حساب الاعمال .

(أقول) : ان العصر الذي تجتمع له كل هذه المفاخر لهو خلق بالتقديس والتبجل والاعجاب والتقدير ، ولكن ماذا أراني دفع الى

التوسع في أمر لم أكن أريد أن أطيل فيه ؟ وليس لي ان افرد في جنب الموضوع الذي احاوله بالتوسع في امر آخر ، ولكنها الحماسة لذلك العصر هي التي دفعتني الى ذلك ، فهو بلا ريب زين العصور في الروحية والاستقامة أنا أفهم هذا جيدا ، ووافق عليه متحمسا ، ولكنني لا أفهم ان يمنع عن التعمق في الدرس العلمي ، او انتمجس التاريخي لموضوع كموضوعات الساعة التي نتكلم عنها من مراحل ذلك الزمن ، او يحضر علينا ان نبدأ البحث في مسألة فذك على اساس ان احد الخصمين كان مخطئا في موقفه بحسب موازين الشريعة ومقاييسها ، او ان نلاحظ ان قصة الخلافة وفكرة السقيفة لم تكن مرتجلة ولا وليدة يومها اذا دلنا على ذلك سير الحوادث حينذاك ، وطبيعة الظروف المحيطة بها .

واكبر الظن ان كثيرا منا ذهب في تحليل مناقب ذلك العصر ومآثره مذهبا جعله يعتقد ان رجالات الزمن الخالي ، وتعبير اوضح تحديدا ان أبا بكر وعمر واضراهما الذين هم من موجهي الحياة العامة يومئذ لا يمكن ان يتعرضوا لنقد او محاكمة ، لأنهم بناء ذلك العصر والواضعون لحاته خطوطها الذهبية ، فتاريخهم تاريخ ذلك العصر ، وتجريدهم عن شيء من مناقبهم تجريد لذلك العصر عن مثاليته التي يعتقدها فيه كل مسلم .

واريد ان اترك لي كلمة مختصرة في هذا الموضوع فيها مادة لبحر طوبل ، ولمحة من دراسة مهمة قد اعرض لها في فرصة اخرى من فرص التأليف ، واكتفي الآن ان اتساءل عن نصيب هذا الرأي من الواقع

صحبح ان الاسلام في ايام الخلفين كان مهيبنا ، والفتوحات متصلة والحياة متدفقة بمعاني الخير ، وجميع نواحيها مزدهرة بالانبعان الروحي الشامل ، واللون القرآني المشع ، ولكن هل يمكن ان تقبل ان التفسير الوحيد لهذا وجود الصديق او الفاروق على كرسي الحكم ؟

والجواب المفصل عن هذا السؤال نخرج ببيانه عن حدود الموضوع
ولكننا نعلم ان المسلمين في ايام الخلفيتين كانوا في اوج تحمسهم لدينهم،
والاستبسال في سبيل عقيدتهم ، حتى أن التاريخ سجل لنا ان شخصا
اجاب عمر حنبا صعد يوما على المنبر وسأل الناس : لو صرفناكم عما
تعرفون الى ما تنكرون ما كنتم صانعين ؟ - اذن كنا نستتيك فان نبت
قبلناك فقال عمر : وان لم ؟ - قال : نضرب عنقك الذي فيه عيناك • فقال
عمر : الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من اذا اعوججنا اقام اودنا •

ونعلم ايضا ان رجالات الحزب المعارض - واعني به اصحاب علي -
كانوا بالمرصاد للخلافة الحاكمة ، وكان أي زلل وانحراف مشوه للون
الحكم حينذاك كفيلا بأن يقلبوا الدنيا رأسا على عقب كما قلبوها على
عثمان يوم اشترى قصرا ، ويوم ولى أقاربه • ويوم عدل عن السيرة
النبوية المثلى ، مع أن الناس في ايام عثمان كانوا أقرب الى الميوعة في
الدين واللين والدعة منهم في أيام صاحبيه •

ونفهم من هذا ان الحاكمين كانوا في ظرف دقيق لا يتسع للتغيير
والتبديل في أسس السياسة ونقاطها الحساسة لو ارادوا الى ذلك سبيلا،
لانهم بحث مراقبة النظر الاسلامي العام الذي كان مخلصا كل الاخلاص
لمبادئه ، وجاعلا لنفسه حق الاشراف على الحكم والحاكمين ، ولأنهم
يتعرضون لو فعلوا شيئا من ذلك لمعارضة خطرة من الحزب الذي لم يكن
يزال يؤمن بأن الحكم الاسلامي لا بد أن يكون مطبوعا بطابع محمدي
خالص وان الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يطبعه بهذا الطابع المقدس
هو علي وارث رسول الله ووصيه وولي المؤمنين من بعده •

وأما الفتوحات الاسلامية فكان لها الصدارة في حوادث تلك الايام
ولكننا جميعا نعلم ايضا ان ذلك لا يسجل للحكومة القائمة في ايام

الخليفتين بلونها المعروف مجدا في حساب التاريخ ما دام كل شأن من شؤون الحرب ومعداته وأساليبه بتهماً بعمل اشبه ما يكون بالعمل الاجماعي من الامة الذي تعبر به عن شخصيتها الكاملة تعبيراً عملياً خالداً ، ولا يعبر عن شخصية الحاكم الذي لم يصل اليه من لهيب الحرب شرر ، ولم يستفل فيه برأي ، ولم يهياً له الا بأمر ليس له فيه ادنى نصيب ، فان خلفه الوف سواء أكان وف فصح السام أو العراق ومصر لم يعلن بكلمة الحرب عن فوزه حكمونه ومقدرة شخصه على أن يأخذ لهذه الكلمة أهبتها بل أعلن عن قوة الكلمة النبوية التي كانت وعداً قاطعاً بفتح بلاد كسرى وقبصر اهتزت له قلوب المسلمين حماسة واملا بل ايماناً وبقينا ، وبجدتنا التاريخ ان كثيراً ممن اعزل الحياه العملية بعد رسول الله لم يخرج عن عزلته لى مجالات العمل الا حين ذكر هذا الحديث النبوي ، فقد كان هو والايمان المتمركز في القلوب الفوه النبي هيأت للحرب كل ظروفه وكل رجاله وامكانياته ، وأمر آخر هماً للمسلمين أسباب الفوز ، وأنالهم النصر في معارك الجهاد لا يتصل بحكومة الشورى عن قرب او بعد ، وهو الصبب الحسن الذي نشره رسول الله للاسلام في آفاق الدنيا ، واطراف المعمورة ، فلم يكن ينوجه المسلمون الى فتح بلد من البلاد الا كان امامهم جيش آخر من الدعايات والترويجات لدعوتهم ومبادئهم .

وفي أمر الفتوحات شيء آخر هو الوحيد الذي كان من وظيفة الحاكمين وحدهم القيام به دون سائر المسلمين الذين هبتوا بقية الامور وهو ما بتلو الفتح من بث الروح الاسلامية ، وتركيز مثاليات القرآن في البلاد المفتوحة ، وتعميق الشعور الوجداني والديني في الناس الذي هو معنى وراء الشهادات ، ولا ادري هل يمكننا أن نسجل للخليفتين شيئاً من البراعة في هذه الناحية او نشك في ذلك كل التشك كما صار اليه بعض الباحثين وكما يدل عليه تاريخ البلاد المفتوحة في الحياة الاسلامية

كانت الظروف كلها تشارك الخليفين في تكوين الحياة العسكرية
المنتجة التي قامت على عهدهما ، وفي بناء الحياة السياسية الخاصة التي
اتخذها •

ولا أدري ماذا كان موقفهما لو قدر لهما ولعلي ان يتبادلوا ظروفهم
فيقف الصديق والفاروق موقف الامام ويسود في تلك الظروف التي
كانت كلها تشجع على بناء سياسة ، ومنهج لحكم جديد . وانشاء حياة
لها من ألوان الترف ، وضروب النعيم حظ عظيم ، فهل كانا يعاكسان تلك
الظروف كما عاكسها أمير المؤمنين ؟ •• فضرب بنفسه مثالا في الاخلاص
للمبدأ والنزاهة في الحكم •

وأنا لا أقصد بهذا أن اقول ان الخليفين كانا مضطرين اضطرارا
الى سيرة رشيدة في الحكم . واعتدال في السياسة والحياة . ومرغمين على
ذلك ، وانما اعني ان الظروف المحيطة بهما كانت تفرض عليهما ذلك سواء
أكانا راغبين فيه او مكرهين عليه •

كما اني لا اريد ان اجردهما عن كل اثر في التاريخ . وكيف
يسعني شيء من ذلك وهما اللذان كتبوا يوم السقيفة سطور التاريخ
الاسلامي كله ، وانما عنيت انهما كانا ضعيفي الاثر في بناء تاريخ ايامهما
خاصة وما ازدهرت به من حياة مكافحة وحياة فاضلة •

اكتب هذا كله وبين يدي كتاب (فاطمة والفاطميون) الاستاذ
عباس محمود العقاد ، وقد جئته بشوق بالغ لأرى ما يكتب في موضوع
الخصومة بين الخليفة والزهاء ، وأنا على يقين من ان أيام التبعيد بأعمال
السالفين وتصويبها على كل تقدير قد انتهت وان الزمان الذي ينحاشي
فيه عن التعمق في شيء من مسائل الفكر الانساني دينا كانت او مذهبا

او ناريخا أو أي شيء آخر قد مضى مع ما مضى من تاريخ الاسلام بعد أن طال قرونا ، ولعل الخليفة الأول كان هو اول من اعلن ذلك المذهب عندما صرخ في وجه من سأله عن مسألة الحرية الانسانية والقدر وهدده ونوعده ولكن أليس قد اراحنا الله تعالى من هذا المذهب الذي يسبىء الى روح الاسلام واذن فكان لى ان اتوقع بحثا لذيذا ينحفنا به الاستاذ في موضوع الخصومة من شتى نواحيها ولكن الواقع كان على عكس ذلك فادا بكلمة الكتاب حول الموضوع قصيرة وفصيرة جدا والى حد استبيح لنفسي أن أنقلها واعرضها عليك دون ان اطيل عليك فقد قال :

(والحديث في مسألة فدك هو كذلك من الاحاديث التي لا تنتهي الى مقطع للقول منفق عليه غير ان الصدق فيه لا وراء ان الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق وان الصديق اجل من ان يسلبها حقها الذي تقوم به البيعة عليه ، ومن اسخف ما قبل انه انما منعها فدك مخافة ان ينفق علي من غلتها على الدعوى اليه فقد ولي الخلافة ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يسمع ان احدا بابعهم لمال أخذه منهم ولم يرد ذكر شيء من هذا في اشاعة ولا فى خبر يفيين وما نعلم نزكية لذمة الحكم من عهد الخليفة الاول اوضح بنة من حكمه في مسألة فدك فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها وما اخذ من فدك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع وانما هو الحرج في ذمة الحكم بلغ اقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين رضوان الله عليهم اجمعين انتهى) •

ونلاحظ قبل كل شيء أن الاستاذ شاء أن يعتبر البحث في مسألة فدك لونا من ألوان النزاع التي ليس لها قرار ولا يصل الحديث فيه الى نتيجة فاصلة ليقدم بذلك عذره عن التوفر على دراستها ، واعتقد ان في محاكمات هذا الكتاب التي سترد عليك جوابا عن هذا ، ونلاحظ أيضا

انه بعد أن جعل مسألة فدك من الاحاديث التي لا تنهي الى مقض للقول متفق عليه رأى ان فيها حفتين لا مراء فيهما ولا جدال (احداهما) ان الصدقة أرفع من ان تنالها تهمة بكذب والاخرى ان الصديق اجل من ان يسلبها حقها الذي ينسب اليه . فادا لم يكن في صحة موقف الحلقة واتفاقه مع القانون جدال ففهم الجدال الذي لا قرار له ولم لا تنهي مسألة فدك الى منفع للقول متفق عليه .

وانا افهم ان المكاتب الحرة في ان بسجل رأيه في الموضوع أي موضوع كما يشاء وكما يشاء له تفكره بعد ان يرسم للقارئ مدارك ذلك الرأي وبعد أن يدخل قدرباب المسألة كلها في الحساب ليخرج منها بتقدير معين ولكن لا أفهم ان يقول ان المسألة موضوع لبحث الباحثين ثم لا يأتي الا برأي مجرد عن المدارك يحتاج الى كثير من النرح والنوضيح والى كثير من البحث والظر فادا كانت الزهراء أرفع من كل تهمة فما حاجتها الى البينة ؟ وهل سمع التشريعات القضائية في الاسلام عن ان يحكم العالم اسنادا الى علمه ؟ وادا كانت سمع عن ذلك فهل معنى هذا ان يجوز في عرف الدين سلب الشيء من المالك ؟ هذه اسئلة ومعها اسئلة اخرى ايضا في المسألة تتطلب جوابا علميا . وبحثا على ضوء أساليب الاستنباط في الاسلام .

واريد ان اكون حرا واذن فاني استميج الاستاذ ان لاحظ ان تزكية موقف الخليفة والصدقة معا امر غير ممكن . لأن الامر في منازعهما لو كان مقتصرا على مطالبة الزهراء بفدك وامناع الخليفة عن تسليمها له لعدم وجود مستمسك شرعي يحكم بواسطته لها بما تدعيه وانهاء المطالبة الى هذا الحد لوسعنا ان نقول ان الزهراء طلبت حقها في نفس الامر والواقع ، وأن الخليفة لما امتنع عن تسليمها لعدم تهيو

المدرک الشرعی الذی تثبت به الدعوی ترک مطالبتها ، لانها عرفت انها لا تستحق فدکا بحسب النظام القضائي وسنن الشرع ، ولكننا نعلم ان الخصومة بينهما اخذت اشکالا مختلفة حتى بلغت مبلغ الاتهام الصریح من الزهراء واقسمت على المقاطعة •

واذن فنحن بین اثنتين : احدهما أن نعرف بأن الزهراء قد ادعت باصرار ما ليس لها بحق في عرف القضاء الاسلامي والنظام الشرعي وان كان ملكها في واقع الامر ، والاخرى ان نلقي التبعة على الخليفة ونقول انه قد منعها حقها الذي كان يجب عليه ان يعطيها اياه أو يحكم لها بذلك على فرق علمي بین التعبيرين يتضح في بعض الفصول الآتية ، فتزیه الزهراء عن ان تطلب طلبا لا ترضى به حدود الشرع والارتفاع بالخليفة عن أن يمنعها حقها الذي نسخو به عليها تلك الحدود لا يجتمعان الا اذا توافق النفيضان •

ولترك هذا الى مناقشة اخرى ، فقد اعتبر الاستاد حكم الخليفة في مسألة فدك اوضح بية ودليل على تركيته وبنانه على الحق وعدم تعديه عن حدود الشريعة لانه لو اعطى فدكا لفاطمة لارضاهها بذلك وارضى الصحابة برضاهها ، ولنفرض معه ان حدود القانون الاسلامي هي التي كانت تفرض عليه أن يحكم بأن فدكا صدقة ولكن ماذا كان يمنعه عن أن ينزل للزهراء عن نصيبه ونصيب سائر الصحابة الذين صرح الأستاذ بأنهم يرصون بذلك ؟ .. أكان هذا محرما في عرف الدين ايضا ؟ أو أن امرا ما اوحى اليه بأن لا يفعل ذلك ؟ بل ماذا كان يمنعه عن تسليم فدك للزهراء بعد ان اعطته وعدا قاطعا بأن تصرف حاصلاتها في وجوه الخير والمصالح العامة ؟

وأما ما استسخفه الكاتب من تعليل لحكم الخليفة فسوف نعرف في هذا الفصل ما اذا كان سخيفا حقا •

إذا عرفنا ان مركزات الناس ليست وحيا من السماء لا تقبل شكاً ولا جدالاً ، وأن درس مسائل السالفين ليس كفراً ولا زندقة ولا تشكيكاً في أعلام النبوة كما كانوا يقولون ، فلنا ان تتساءل عما بع الصديقة الى البدء بمنازعتها حول فدك على ذلك الوجه العنيف الذي لم يعرف او لم يشأ ان يعرف هيئة للسلطة المهيمنة او جلالة للقوة المتصرفة يعصم الحاكمين من لهيها المتصاعد ، وشررها المتطاير ، وبقي الحكم من اشاعة نور متألفة تلقي ضوءاً عليه ، فتظهر للتاريخ حقيقته مجردة عن كل سار بل كانت بداية المنازعة ومراحلها نذير ثورة مكتسحة او ثورة بالفعل عندما اكتملت في شكلها الاخير ، ويومها الاخير ، يحمل كل ما لهذا المفهوم من مقدمات ونتائج ، ولا تتعرض لضعف او زرد .

وما عساه ان يكون هدف السلطة الحاكمة ، او بالاحرى هدف الخليفة (رضي الله عنه) نفسه في ان يقف مع الحوراء على طرفي الخط او لم يكن يخطر بباله ان خطته هذه تفتح له باباً في التاريخ في تعداد اولياته ثم يذكر بينها خصومة اهل البيت ، فهل كان راضياً بأوليته هذه مخلصاً لها حتى يستبسل في امتناعه وموقفه السلبي بل الايجابي المعاكس او انه كان منقاداً للقانون ، وملتزماً بحرفته في موقفه هذا كما يقولون ، فلم يشأ ان يتعد حدود الله تبارك وتعالى في كثير او قليل وان لموقفه الغريب تجاه الزهراء صلة بموقفه في السقيفة ، واعني بهذه الصلة الاتحاد في الغرض او اجتماع الغرضين على نقطة واحدة ، وبالاحرى ان تقوم على دائرة واحدة متسعة اتساع دولة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها آمال بواسم ، وموجات من الاحلام ضحك لها الخليفة كثيراً وسعى في سبيلها كثيراً ايضا .

اننا ندرك بوضوح ، ونحن نلاحظ الظرف التاريخي الذي حصف بالحركة الفاطمية ان البيت الهاشمي المفجوع بعبيده الاكبر قد توفرت له

كل بواعث الثورة على الاوضاع القائمة والانبعاث نحو تغييرها وانشائها
انشاءا جديدا وان الزهراء قد اجتمعت لها كل امكانات الثورة ومؤهلات
المعارضة التي قرر المعارضون ان تكون منازعة سلمية مهما كلف الامر .

واننا نحس ايضا اذا درسنا الواقع التاريخي لمسكلة فذلك ومنازعاتها
بأنها مطبوعة بطابع تلك الثورة ، وتبين بجلاء ان هذه المنازعات كانت
في وافعها ودوافعها ثورة على السياسة العليا والوانها التي بدت للزهراء
بعيدة عما نألفه من ضروب الحكم ، ولم تكن حقا منازعة في شيء من
من شؤون السياسة المالية ، والمناهج الاقتصادية التي سارت عليها خلافة
الشورى وان بدت على هذا الشكل في بعض الاحابن .

واذا اردنا ان نمسك بحيوط الثورة الفاطمية من اصولها او ما
يصح ان يعبر من اصولها فعلينا ان ننظر نظرة شاملة عميقة لتبين حادثتين
متقاربتين في تاريخ الاسلام كان احدهما صدى للآخر وانعكاسا طبيعيا
له وكانا معا بمتدان بجدورهما وحيوطهما الاولى الى حيث قد يلتقي
احدهما بالآخر او بتعبير اصح الى النقطة المستعدة في طبيعتها الى ان
نمتد منها خيوط الحادثتين .

احدهما الثورة الفاطمية على الخليفة الاول التي كاد ان نزعزع
كيانه السياسي . وترمي بخلافه بن مهملات التاريخ .

والآخر موقف ينعكس فيه الأمر فنقف عائشة أم المؤمنين بسـ
الخليفة المونور في وجه علي زوج الصدفة الثائرة على أيها .

وفد شاء القدر لكلا الثائرين ان تفشلا مع فاروق بينهما مرده
الى نصب كل منهما من الرضا بتوربها . والاضمئان المسميري الى سوابها
وحظ كل منهما من الانصار في حساب الحق الذي لا السواء فيه وهو أن

الزهاء فشلت بعد ان جعلت الخليفة يبكي ويقول اقبلوني ببعتي والسيدة عائشة فشلت فصارت نمنى انها لم تخرج الى حرب ولم ننس عصا طاعة . هانان الثوربان منقاربان في الموضوع والاشخاص فلماذا لا ننهيان الى اسباب منقاربة وبواعث متشابهة .

ونحن نعلم جيدا ان سر الانقلاب الذي طرأ على السيده عائشة حين اخبارها بأن عليا ولي الخلافة يرجع الى الابام الاولى في حياه علي وعائشه حينما كاتب المنافسه على قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بين روحه وبضعته .

ومن شأن هذه المنافسه ان تسمع في آثارها فتثبت مشاعرا مختلفة من الغبط والنفار بين الشخصين المتنافسين وتلف بخيوطها من حولهما من الانصار والاصدقاء ، وقد اتسعت بالفعل في احد الطرفين فكان ما كان بين السيدة عائشة وعلي فلا بد ان تتسع في الطرف الآخر فتعم من كانت نعمل أم المؤمنين على حسابه في بيت النبي .

نعم ان انقلاب ام المؤمنين انما هو من وحي ذكريات تلك الايام التي نصح فيها علي لرسول الله (صلى الله عليه وآله) بأن يطلقها في قصة الافك المعروفة .

وهذا الصبح ان دل على شيء فانه يدل على انزعاجه منها ومن منافستها امرينه وعلى ان الصراع بين زوج الرسول وبضعته كان قد اتسع في معناه وشمل عليا وغير علي ممن كان يهتم بنتائج تلك المنافسه واطوارها .

نعرف من هذا ان الظروف كانت نوحى الى الخليفة الاول بسعور خاص نحو الزهاء وزوج الزهاء ولا ننسى انه هو الذي تقدم لخطبتها فرده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تم تقدم علي الى ذلك فأجابه

النبي الى ما أراد وذلك الرد وهذا القبول يولدان في الخليفة اذا كان شخصا طبيعيا يشعر بما يشعر به الناس ويحس كما يحسون شعورا بالخيبة والعبطة لعلّي - اذا احتطنا في التعبير - وبأن فاطمة كانت هي السبب في تلك المنافسة بينه وبين علي التي انتهت بفوز منافسه •

ولنلاحظ أيضا ان أبا بكر هو الشخص الذي بعثه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليقرأ سورة التوبة على الكافرين ثم ارسل وراءه وفد بلغ منتصف الطريق لئلا يسد عليه ويعفيه من مهمته لا لشيء الا لأن الوحي شاء ان يضع امامه مرة اخرى منافسه في الزهراء الذي فاز بها دونه •

ولا بد انه كان يراقب ابيه في مسابقتها مع الزهراء على الاولوية لدى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويتأثر بعواطفها كما هو شأن الأبناء مع الابناء •

وما يدريا لعله اعنف في وف من الاوقات ان فاطمة هي التي دفعت بأبيها الى الخروج لصلاة الجماعة في المسجد يوم مهدد له أم المؤمنين التي كانت تعمل على حسابه في بنت النبي أن يؤم الناس مادام النبي مريضا •

ان التاريخ لا يمكننا ان نترب منه شرح كل شيء شرحا واضحا جليا غير ان الامر الذي نجتمع عليه الدلائل ان من المفعول جدا ان نصف شخص مرب به ظروف كالظروف الخاصة التي احاطت بالحلفة من علي وفاطمة موقفه التاريخي المعروف وان امرأة نعاصر ما عاصره الزهراء في ابام أبنائها من دناءات حتى في سبائك بصل بسها وبين انها حري بها ان لا نسكت اذا اراد المنافسون ان يسولوا على حقها الترعبي الذي لا رب فيه •

هذه هي الثورة الفاطمية في لونها العاطفي وهو لون من عدة ألوان
أوضحها وأجلاها اللون السياسي الغالب على أساليبها وأطوارها •

وأنا حين أقول ذلك لا أعني بالسياسة مفهومها الرائج في أذهان
الناس هذا اليوم المركز على الالتواء والافتراء • وإنما أقصد بها مفهومها
الحقيقي الذي لا التواء فيه فالمعنى في دراسة خطوات النزاع وتطورات
والاشكال التي اتخذها لا يفهم منه ما يفهم من قضية مطالبة بأرض بل
بحل له منها مفهوم أوسع من ذلك ينطوي على غرض طموح يبعث الى
الثورة ويهدف الى استرداد عرش مسلوب وتاج ضائع ومجد عظيم وتعديل
أمة انقلب على أعقابها •

وعلى هذا كانت فذلك معنى رمزيا يرمز الى المعنى العظيم ولا يعني
نلك الأرض الحجازية المسلوقة • وهذه الرمزية التي اكتسبتها فذلك هي
التي ارتفعت بالمنازعة من مخاضة عادية منكشحة في افقها محدودة في
دائرها الى نورة واسعة النطاق رحبة الافق •

ادرس ما شئت من المسنداد التاريخي النابذة للمسألة • فهل ترى
نراغا مادبا ؟ او ترى اخلافا حول فذلك بمعناها المحدود وواقعها الضيق
او ترى نسبافا على غلاب ارض مهما صعد بها المبالعون وارتفعوا ؟ فليست
شيئا بحسب له المتنازعان حسابا •

كلا • بل هي النورة على اسس الحكم والصرخة التي ارادت فاطمة
ان تملع بها الحجر الاساسي الذي بنى عليه التاريخ بعد يوم السقيفة •
ويكعبا لاثبات ذلك ان نلغي نظرة على الخطبة التي خُطبت الزهراء
في المسجد امام الخليفة وبين يدي الجمع المحتشد من المهاجرين والانصار
فانها دارب اكثر ما دارب حول امتداح علي والثناء على مواقفه الخالدة

في الاسلام وتسجيل حق أهل البيت الذين وصفتهم بأنهم الوسيلة الى الله في خلقه وخاصته ومحل قدسه وحجته في غيبه وورثة انبيائه في الخلافة والحكم والقات المسلمين الى حظهم العاثر واختيارهم المرتجل وانقلابهم على اعقابهم ، وورودهم غير شربهم ، واسنادهم الامر الى غير اهله ، والفتنة التي سقطوا فيها ، والدواعي التي دعتهم الى ترك الكتاب ومخالفته فيما يحكم به في موضوع الخلافة والامامة .

فالمسألة اذن ليست مسألة ميراث ونحلة الا بالمقدار الذي يتصل بموضوع السياسة العليا ، وليست مطالبة بعقار او دار ، بل هي في نظر الزهراء مسألة اسلام وكفر ، ومسألة ايمان ونفاق ، ومسألة نص وشورى

وكذلك نرى هذا النفس السياسي الرفيع في حديثها مع نساء المهاجرين والأنصار ، اذ قالت فيما قالت : أين زحزحوها عن رواسي الرسالة . وقواعد النبوة ، ومهبط الروح الأمين والطيبين بأمر الدنيا والدين ألا ذلك هو الخسران المبين ، وما الذي تقموا من أبي حسن تقموا والله نكير سيفه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمره في ذات الله ، وتالله لو تكافؤا عن زمام نبذه اليه رسول الله (ص) لا اعتلقه وسار اليهم سيرا سجعاً لا تكلم حشاشه ، ولا يتنعج راكمه ، ولأوردتهم منهلأ نميراً فضفاضاً تطفح فضفاضه ، ولأصدرهم بطاناً قد تحير بهم الرأي غير متحل بظائل الا بغمر الناهل وردعه سورة الساعب ، ولفتحت عليهم بركات من السماء والارض ، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون ، ألا لهم فاستمع وما عشت أراك الدهر عجيباً وان تعجب فقد اعجبك الحادث الى أي لجأ استندوا وبأي عروة تمسكوا ، لبئس المولى ولبئس العشير ، ولبئس للظالمين بدلا استبدلوا والله الذنابي بالقوادم والعجز بالكاهل فرغماً لمعاطس قوم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ويجهم أفمن

يهدي الى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي الا أن يهدي ؟ فما لكم
كيف تحكمون •

ولم يؤثر عن نساء النبي (صلى الله عليه وآله) انهن خاصمن أبا بكر
في شيء من ميراثهن أكن أزهد من الزهراء في متاع الدنيا ، وأقرب الى
ذوق أبيها في الحياة ؟ أو أنهن اشتغلن بمصيبة رسول الله ولم تشتغل بها
بضعته ؟ أو أن الظروف السياسية هي التي فرقت بنهن فأقامت من
الزهراء معارضة شديدة ، ومنازعة خطيرة دون نسوة النبي اللاتي لم
تزعهن اوضاع الحكم •

وأكبر الظن ان الصديقة كانت تجد في شيعة قرينها ، وصفوة
اصحابه الذين لم يكونوا يشكون في صدقها من يعطف شهادته على
شهادة علي وتكمل بذلك البيعة عند الخليفة افلا يفدنا هذا ان الهدف
الأعلى لفاطمة الذي كانوا يعرفونه جيدا ليس هو انبات النحلة او الميراث،
بل القضاء على نتائج السقيفة وهو لا يحصل باقامة البيعة في موضوع
فدك ، بل بان تقدم البيعة لدى الناس جميعا على انهم ضلوا سواء
السبيل • وهذا ما كانت تريد ان تقدمه الحوراء في خطتها المناضلة •

ولنستمع الى كلام الخليفة بعد أن انتهت الزهراء من خطبتها وخرجت
من المسجد فصعد المنبر وقال : أيها الناس ما هذه الدعة الى كل قالة لأن
كانت هذه الأماني في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألا من سمع
فليقل • ومن شهد فليتكلم انما هو ثعالة شهيد ذنبه مرب لكل فتنة كام
طحال أحب اهلها اليها البغي • ألا اني لو اشاء أن أقول لقلت ولو قلت
لبح اي ساكت ما تركت ، ثم التفت الى الانصار وقال : قد بلغني
يا معشر الانصار مقالة سفهاكم واحق من لزم عهد رسول الله (صلى الله
عليه وآله) انتم فقد جاءكم فأوتيتهم ونصرتهم ، ألا اني لست باسطا يدا ولا
لسانا على من لم يستحق ذلك •

وهذا الكلام يكشف لنا عن جانب من شخصية الخليفة ، ويلقي ضوءا على منازعة الزهراء له ، والذي يهنا الآن ما يوضحه من أمر هذه المنازعة وانطباعات الخليفة عنها ، فانه فهم حق الفهم ان احتجاج الزهراء لم يكن حول الميراث او النحلة ، وانما كان حربا سياسية كما نسيها اليوم وتظلما لقرينها العظيم الذي شاء الخليفة وأصحابه أن يبعده عن المقام الطبيعي له في دنيا الاسلام ، فلم يتكلم الا عن علي فوصفه بانه ثعالة وانه مرب لكل فتنة وانه كام طحال وان فاطمة ذنبه التابع له ، ولم يذكر عن الميراث قليلا او كثيرا •

ولنلاحظ ما جاءت به الرواية في صحاح السنة من ان عليا والعباس كانا يتنازعا في فداك في ايام عمر بن الخطاب فكان علي يقول ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) جعلها في حياته لفاطمة ، وكان العباس يأبى ذلك ويقول هي ملك رسول الله وانا وارثه ويتخاصمان الى عمر. فيأبى ان يحكم بينهما ويقول اتما أعرف بشأنكما اما انا فقد سلمتها اليكما •

فقد نفهم من هذا الحديث اذا كان صحيحا ان حكم الخليفة كان سياسيا موقتا وان موقفه كان ضرورة من ضرورات الحكم في تلك الساعة الحرجة والا فلما أهمل عمر بن الخطاب رواية الخليفة وطرحها جانبا وسلم فداكا الى العباس وعلي وموقفه منهما يدل على انه سلم فداكا اليهما على اساس انها ميراث رسول الله لا على وجه التوكيل ، اذ لو كان على هذا الوجه لما صح لعلي والعباس ان يتنازعا في ان فداكا هل هي نحلة من رسول الله لفاطمة او بركة من تركانه التي يستحقها ورثته وما اثر هذا النزاع ولو فرض انها في رأي الخليفة مال للمسلمين وقد وكلهما في القيام عليه ، ولنفض عمر النزاع وعرفها انه لا يرى فداكا مالا موروثا ولا من املاك فاطمة وانما اوكل امرها اليهما لينوبا عنه برعايتها وتعاهدا كما ان عدم حكمه بفداك لعلي وحده معناه انه لم يكن واثقا بنحلة رسول

الله (صلى الله عليه وآله) خدكا لفاطمة فليس من وجه لتسليمها الى علي والعباس الا الارث •

واذن ففي المسألة تقديران (احدهما) ان عمر كان يتهم الخليفة بوضع الحديث في نهي الارث (والآخر) انه تأوله وفهم منه معنى لا ينتهي التورث ولكن لم يذكر تأويله ولم يناقش به ابا بكر حينما حدث به وسواء اصح هذا او ذاك ، فالجانب السياسي في المسألة ظاهر والا فلماذا يتهم عمر الخليفة بوضع الحديث اذا لم يكن في ذلك ما يتصل بسياسة الحكم ، يومئذ ، ولماذا يخفي تأويله وتفسيره ، وهو الذي لم يتخرج عن ابداء مخالفته للنبي او الخليفة الاول فيما اعترضهما من مسائل •

واذا عرفنا ان الزهراء نازعت في امر الميراث بعد استيلاء الحزب الحاكم عليه ، لأن الناس لم يعتادوا ان يستأذنوا الخليفة في قبض موارثهم او في تسليم الموارث الى أهلها ، فلم تكن فاطمة في حاجة الى مراجعة الخليفة ولم تكن لتأخذ رأيه وهو الظالم المنتزعي على الحكم في رأيها فالمطالبة بالميراث لا بد انها كانت صدى لما قام به الخليفة من تأميمه للتركة على ما نقول اليوم والاستيلاء عليها •

(أقول) : اذا عرفنا هذا وان الزهراء لم تطالب بحقوقها قبل ان تنتزع منها : - نجلى لدينا ان ظرف المطالبة كان مشجعا كل التشجيع للمعارضين على ان يفتنموا مسألة الميراث مادة خصبة لمقاومة الحزب الحاكم على اسلوب سلمي كانت تفرضه المصالح العليا يومئذ واتهامه بالغضب والتلاعب بقواعد الشريعة والاستخفاف بكرامة القانون •

واذا أردنا ان نفهم المنازعة في اشكالها واسبابها على ضوء الظروف المحيطة بها وتأثيرها كان لزاما علينا أن نعرض تلك الظروف عرضا

مستعجلا ونسجل صورة واضحة الالوان للعهد الانقلابي بالمقدار الذي يتصل بغرضنا .

ولا أعني بالانقلاب حين أصف عهد الخليفة الاول بذلك الا مفهومه الحقيقي المنطبق على تلون السلطة الحاكمة بشكل جمهوري يتقوم بالثورة ويكتسب صلاحياته من الجماعات المنتخبة ونزعها لشكلها الاول الذي يستمد قوته وسلطته من السماء .

فقد كانت تلك اللحظة التي ضرب بها بشير بن سعد على يد الخليفة نقطة التحول في تأريخ الاسلام التي وضعت حدا لأفضل العهود وأعلنت عهدا آخر ترك تقيضه للتاريخ .

قد كان ذلك في اليوم الذي حانت فيه الساعة الاخيرة في تاريخ النبوات التي قطعت اقدس اداة وصل بين السماء والارض وابركها وأفيضها خيرا ونعمة واجودها صقلا للانسانية اذ لفظ سيد البشر نفسه الاخير وطارت روحه الى الرفيق الاعلى فكان قاب قوسين او أدنى فهرع الناس الى بيت النبوة الذي كان يشرق باضوائه لتوديع العهد المحمدي السعيد وتشيع النبوة التي كانت مفتاح مجد الامة وسر عظمتها واجتمعوا حوله تتقاذفهم شتى الخواطر وترسم في افكارهم ذكريات من روعة النبوة وجلال النبي العظيم وقد خيل اليهم ان هذه السنوات العشر التي نعموا فيها برعاية خير الأنبياء وأبر الآباء كانت حلما لذيذا تمتعوا به لحظة من زمان وازدهرت به الانسانية برهة من حياتها وهامهم قد افاقوا على أسوأ ما يستيقظ عليه نائم .

وبينما كان المسلمون في هذه الغمرة الطاغية ، والصمت الرهيب لا ينطق منهم أحد بكلمة ، وقد اكتفوا في تأييد الراحل العظيم بالدموع والحسرات والخشوع والذكريات يفاجؤون بصوت يجلجل في الفضاء ويقطع خيط الصمت الذي لف المجتمعين وهو يعلن أن رسول الله (ص)

لم يمت ولا يموت حتى يظهر دينه على الدين كله وليرجعن فليقطعن ايدي رجال وارجلهم ممن ارجف بمونه : لا اسمع رجلا يقول مات رسول الله الا ضربته بسيفي *

والتفت الانظار الى مصدر الصوت ليعرفوا القائل فوجدوا عمر ابن الخطاب قد وقف خطيبا بين الناس وهو يجلجل برأيه في شدة لا تقبل نزاعا وشاعت الحياة في الناس من جديد فتكلموا وتحدثوا في كلام عمر والتف بعضهم حوله *

واكبر الظن ان قوله وقع من اكثرهم موقع الاستغراب والتكذيب وحاول جماعة منهم ان يجادلوه في رأيه ولكنه بقي شديدا في قوله ثابتا عليه والناس يتكاثرون حوله ويتكلمون في شأنه ويعجبون لحاله حتى جاء أبو بكر وكان حين توفي النبي في منزله بالسنع والتفت الى الناس وقال من كان يعبد محمدا فانه قد مات ومن كان يعبد الله فانه حي لا يموت قال الله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) وقال (أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم) ولما سمع عمر ذلك اذعن واعترف بموت رسول الله (ص) وقال كأني ما سمعتها - يعني الآية *

ونحن لا نرى في هذه القصة ما يراه كثير من الباحثين من أن الخليفة كان بطل ذلك الظرف العجيب * والرجل الذي تهيأت له معدات الخلافة بحكم موقفه من رأي عمر لأن المسألة ليست من الاهمية بهذا الحد ولم يحدثنا التاريخ عن شخص واحد انتصر لعمر في رأيه فلم يكن الا رأيا شخصيا لا خطر له ولا شأن للقضاء عليه *

وقد يكون من حق البحث ان لاحظ ان شرح الخليفة لحقيقة الحال في خطابه الذي وجهه الى الناس كان شرحا باهتا في غير حد لا يبدو عليه من مشاعر المسلمين المتحرقة في ذلك اليوم شيء ، بل لم يزد في بيان الفاجعة الكبرى على ان قال ان من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات

وقد كان الموقف يتطلب من ابي بكر اذا كان يريد ان يقدم في نفسه زعيما لتلك الساعة تأيينا للفقيه الاعظم يتفق مع العواطف المتدفقة بالذكريات والحسرات يومئذ •

ومن الذي كان يعبد سيد الموحدين حتى يقول من كان يعبد محمدا فانه قد مات وهل كان في كلام عمر معنى يدل على انه كان يعبد رسول الله (ص) او كانت قد سرت موجة من الارتداد والاحاد في ذلك المجتمع المؤمن الذي كان يعتصر دموعه من ذكرياته وصبره وتماسكه من عقيدته حتى يعلن لهم ان الدين ليس محدودا بحياة رسول الله لأنه ليس بالاله المعبود •

اذن فلم يكن لكلام أبي بكر الذي خاطب به الناس صلة بموقفهم ولا علاقة برأي عمر ولا انسجام مع عواطف المسلمين في ذلك اليوم وشؤونهم وقد سبقه به غيره ممن حاول مناقشة الفاروق كما سيأتي •

وكان يعاصر هذا الاجتماع الذي تكلمنا عنه اجتماع آخر للانصار عقدوه في سقيفة بني ساعدة برئاسة سعد بن عبادة زعيم الخزرج ودعاهم فيه الى اعطائه الرئاسة والخلافة فأجابوه ثم ترادوا الكلام فقالوا فان أبى المهاجرون وقالوا نحن أولياؤه وعترته فقال قوم من الانصار تقول منا امير ومنكم امير فقال سعد فهذا اول الوهن وسمع عمر الخبر فأتى منزل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفيه ابو بكر فارسل اليه ان اخرج الي فارسل اني مشغول فارسل اليه عمر ان اخرج فقد حدث امر لا بد ان تحضره فخرج فأعلمه الخبر فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة فتكلم ابو بكر فذكر قرب المهاجرين من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وانهم أولياؤه وعترته ، ثم قال نحن الامراء وأتتم الوزراء لا نفتات عليكم بمشورة ولا نقضي دونكم الامور ، فقام الحباب بن المنذر بن الجبوح فقال : يا معشر الانصار املكوا عليكم أمركم فان الناس في ظلكم ولن

يجترى مجرىء على خلافتكم ولا يصدر أحد الا عن رأيكم انهم اهل
 العزة والمنعة وأولوا العدد والكنرة وذووا البأس. والنجدة وانما ينظر
 الناس ما تصنعون فلا تختلفوا ففسد عليكم اموركهم فان ابى هؤلاء الا
 ما سمعتم فمننا أمير ومنهم أمير فقال عمر هيهات لا يجتمع سبفان في غمد
 والله لا ترضى العرب ان تؤمركم ونبها من غيركم ولا تمنع العرب ان
 تولي امرها من كانت النبوة منهم من ينازعنا سافان محمد وحن اولياؤه
 وعشيرته ، فقال الحباب بن منذر يا معشر الانصار املكوا ايديكم ولا
 تسمعوا مقالة هذا واصحابه فبذهبوا بنصييكم من هذا الامر فان ابوا
 عليكم فاجلوهم من هذه البلاد وانهم احق بهذا الامر منهم فانه بأسيا فكم
 دان الناس بهذا الدين أنا جذيها المحكك وعذيقتها المرجب انا ابو شبل
 في عرينة الاسد والله ان شتتم لنعيدها جذعة فقال عمر اذن يقتلك الله،
 قال بل اياك يقتل فقال أبو عبيدة با معشر الانصار انكم اول من نصر
 فلا تكونوا أول من بدل وغير ، فقام بشير بن سعد والد النعمان بن
 بشير فقال : يا معشر الانصار الا ان محمدا من قريش وقومه أولى به
 وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الامر فقال أبو بكر هذا عمر وأبو
 عبيدة بايعوا أيهما شتتم فقالا والله لا تتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل
 المهاجرين وخليفة رسول الله (ص) في الصلاة وهي أفضل الدين أبسط
 يدك فلما بسط يده لياياعه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناداه الحباب
 ابن المنذر يا بشير غفتك غفاق أنفست على ابن عمك الامارة ، فقال اسيد
 ابن خضير رئيس الأوس لأصحابه والله لئن لم تبايعوا ليكونن للخزرج
 عليكم الفضيلة ابدا ، وبايعوا أبا بكر واقبل الناس يبايعونه من كل
 جانب (١) .

ونلاحظ في هذه الفصة ان عمر هو الذي سمع بقصة السقيفة

(١) الجزء الاول من شرح النهج ص ١٢٧ - ١٢٨ .

واجتماع الانصار فيها وأخبر أبا بكر بذلك ومادنا نعلم أن الوحي لم ينزل عليه بذلك النبأ فلا بد أنه ترك البيت النبوي بعد أن جاء أبو بكر واقفنه بوفاة النبي فلماذا ترك البيت ولما اختص أبا بكر بنبأ السقيفة الى كثير من هذه النقاط التي لا نجد لها تفسيراً معقولاً اولى من أن يكون في الامر انفاق سابق بين ابي بكر وعمر وابي عبيدة على خطة معينة في موضوع الخلافة وهذا التقدير التاريخي قد نجد له شواهد عديدة تجيز لنا افتراضه •

الاول : تخصيص عمر لأبي بكر بنبأ السقيفة كما سبق واصراره على استدعائه بعد اعتذاره بأنه مشغول حتى اشار الى الغرض ولمح اليه خرج مسرعاً وذهبا على عجل الى السقيفة ، وكان من الممكن أن يطلب غيره من أعلام المهاجرين بعد اعتذاره عن المجيء ، فهذا الحرص لا يمكن أن نفسره بالصدقة التي كانت بينهما ، لأن المسألة لم تكن مسألة صداقة ولم يكن أمر منازعة الانصار يتوقف على أن يجد عمر صديقا له بل على أن يستعين بمن يوافقه في احقية المهاجرين ايا كان •

ولا ننسى أن نلاحظ أنه أرسل رسولا الى أبي بكر ، ولم يذهب بنفسه ليخبره بالخبر خوفاً من انتشاره في البيت وتسامع الهاشميين أو غير الهاشميين به وقد طلب من الرسول في المرة الثانية أن يخبره بحدوث أمر لا بد أن يحضره ونحن لا نرى حضور ابي بكر لازماً في ذلك الموضوع الا اذا كانت المسألة مسألة خاصة وكان الهدف تنفيذ خطة متفق عليها سابقاً •

الثاني : موقف عمر من مسألة وفاة النبي (ص) وادعاؤه انه لم يمت ولا يستقيم في نفسه ان تقول ان عمر ارتبك في ساعة الفاجعة وفقد صوابه وادعى ما ادعى • لأن حياة عمر كلها تدل على انه ليس من هذا الطراز وخصوصاً موقفه الذي وقفه في السقيفة بعد تلك القصة مباشرة

فالذي تؤثر المصيبة عليه الى حد تفقده صوابه لا يف بعدها بساعة
يحتاج ويجادل ويقاوم ويناضل •

ونحن نعلم ايضا ان عمر لم يكن يرى ذلك الرأي الذي أعلنه في
تلك الساعة الحرجة قبل ذلك بأيام او بساعات حينما اشند برسول الله
(ص) المرض واراد ان يكسب كسابا لا يضل الناس بعده فعارصه عمر وقال
ان كتاب الله يكفيننا وان النبي يهجر او فد علب عليه الوجع كما في
صحاح السنة فكان يؤمن بأن رسول الله يموت وان مرضه قد يؤدي الى
موته والا لما اعترض عليه •

وقد جاء في تاريخ ابن كثير ان عمر بن زائدة فرأ الآية النبي فأقرأها
ابو بكر على عمر قبل ان يتلوها ابو بكر فلم يفتنع عمر وانما قبل كلام
ابي بكر خاصة وافتنع به •

فما يكون تفسير هذا كله اذا لم يكن تفسيره ان عمر شاء ان يشيع
الاضطراب بمقلته بين الناس ليصرفوا اليها وتوجه الافكار نحوها تفنيدا
او تأييدا ما دام ابو بكر غائبا لئلا يسم في امر الخلافة شيء ويحدث امر
لا بد ان يحضره ابو بكر - على حد تعبيره - وبعد أن أفل ابو بكر
اطمأن باله وامن من سام البيعه للبيت الهاشمي ما دام للمعارضة صوت
في الميدان وانصرف الى تلقت الاخبار حادسا بما سيمع فظفر بخبر ما
كان يتوقعه •

الثالث : شكل الحكومة التي تمخضت عنها السقيفة ، فقد تولى
ابو بكر الخلافة وابو عبيدة المال وعمر القضاء ^(١) وفي مصطلحنا اليوم ان
الاول تولى السياسة العليا والثاني تولى السياسة الاقتصادية والثالث
تولى السلطان القضائية وهي الوظائف الرئيسية في مناهج الحكم

(١) راجع الجزء الثاني من تاريخ ابن الاثير صفحة ١٦١ •

الاسلامي ونقسيم المراكز الجبوية في الحكومة الاسلامية يومئذ بهذا
الاسلوب على الثلاثة الذين قاموا بدورهم المعروف في سقيفة بني ساعدة
لا يأتي بالصدفة على الاكثر ولا يكون مرتجلا •

الرابع : قول عمر حين حضرته الوفاة لو كان ابو عبيدة حيا
نوليته (١)

وليست كفاءة ابي عبيدة هي التي أوحى الى عمر بهذا التنبي
لأنه كان يعتقد أهلية علي للخلافة ومع ذلك لم يشأ أن يتحمل أمر الأمة
حيا وميتا (٢) •

وليست أمانة أبي عبيدة التي شهد له النبي (صلى الله عليه وآله
وسلم) بها — بزعم الفاروق — هي السبب في ذلك ، لأن النبي (صلى الله
عليه وآله وسلم) لم يخصه بالاطراء ، بل كان في رجالات المسلمين يومئذ
من ظفر باكثر من ذلك من ألوان الثناء النبوي كما تقرر ذلك صحاح
السنة والشيعه •

الخامس : اتهام الزهراء للحاكمين بالحزبية السياسية ، كما سئرى
في الفصل الآتي •

السادس : قول أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — للفاروق (رضي
الله عنه) : احلب يا عمر حلبا لك شطره اشدد له اليوم أمره ليرد عليك
غدا (٣) •

ومن الواضح انه يلوح الى تفاهم بين الشخصين على المعونة المتبادلة
واتفاق سابق على خطة معينة والا فلم يكن يوم السقيفة نفسه ليتسع لتلك
المحاسبات السياسية التي تجعل لعمر شطرا من الحلب •

(١) شرح النهج ج ١ ص ٦٤
(٢) الانساب للبلاذري ج ٥ ص ١٦
(٣) ج ٢ ص ٥ من شرح النهج •

السابع : ما جاء في كتاب معاوية بن ابي سفيان الى محمد بن أبي بكر (رضوان الله عليه) في اتهام ابيه وعمر بالاتفاق على غضب الحق العلوي والتنظيم السري لحطوط الحملة على الامام اذ قال له فيما قال : فقد لنا وأبوك نعرف فضل ابن ابي طالب وحقه لازما لنا مبرورا علينا فلما اخار الله لنبيه (عليه الصلاة والسلام) ما عنده واتم وعده وظهر دعوته فابلى حجه وفبضه اليه (صلوات الله عليه) كان أبوك والفاروق أول من ابنزه حقه وخالفه على أمره على ذلك اتفقا واتسقا ثم انهما دعواه الى بيعتهما فابطأ عنهما وتلكا عليهما فهما به الهموم وأراد به العظيم^(١) .

ونحن نلاحظ بوضوح عطفه طلب أبي بكر وعمر (رض) للبيعة من الامام بشم على كلمتي اتفقا واتسقا . وهو قد يشعر بان الحركة كانت منظمه بتنظيم سابق وان الاتفاق على الظفر بالخلافه كان سابقا على الايجابيات السياسية التي قاما بها في ذلك اليوم .

ولا أريد ان أتوسع في دراسته هذه الناحية التاريخية أكثر من هذا ولكن هل لي ان الاحظ على ضوء ذلك التقدير التاريخي ان الخليفة لم يكن زاهدا في الحكم كما صوره كثير من الباحثين بل قد نجد في نفس المداورة التي قام بها الخليفة في السقيفة دليلا على تطلعه للأمر فانه بعد ان اعلن الشروط الاساسية للخليفة شاء ان يحصر المسألة فيه فتوصل الى ذلك بأن ردد الأمر بين صاحبيه الذين لن يقدموا عليه وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التردد أن يتعين وحده للامر .

فهذا الاسراع الملحوظ من الخليفة الى تطبيق تلك الصورة التي قدمها للخليفة الشرعي في رأيه على صاحبيه خاصة الذي لم يكن يؤدي الا اليه كان معناه انه أراد أن يسلب الخلافة من الانصار ويقرها في شخصه في آن واحد ولذا لم يبد تردد او ما يشبه التردد لما عرض الامر

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٥ .

عليه صاحباه وعمر نفسه يشهد لأبي بكر بأنه كان مداورا سياسيا بارعا في يوم الساعة في حديث طويل له يصفه فيه بأنه أحسد قریش (١) .

ونجد فيما يروى عن الخليفين في أيام رسول الله (ص) ما يدل على هوى سياسي في نفسيتهما وانهما كانا يفكران في شيء على أقل تقدير فقد ورد في طرق العامة ان رسول الله (ص) قال : ان منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله فقال ابو بكر انا هو يا رسول الله قال : لا ، قال عمر : أنا هو يا رسول الله ، قال : لا ولكن خاصف النعل يعني عليا .

والمقاتلة على التأويل انما تكون بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والمقاتل لابد أن يكون أمير الناس فتلهف كل من ابي بكر وعمر على أن يكون المقاتل على التأويل مع ان القنال على التنزيل كان متيسرا لهما في أيام رسول الله (ص) ولم يشاركاه فيه بنصيب قد يدل على ذلك الجانب الذي نحاول ان نستكشفه في شخصيتهما .

بل اريد ان اذهب أكثر من هذا فألاحظ ان اناسا متعددين كانوا يعملون في صالح ابي بكر وعمر (٢) وفي مقدمتهما عائشة وحفصة اللتان اسرعنا باستدعاء والديهما عندما طلب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حبيبه في لحظاته الاخيرة التي كانت تجمع دلائل الظروف على

(١) راجع شرح النهج ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) وقد سئل النبي صلى الله عليه وآله عندما هدد طائفة من قریش برجل قرشي امتحن الله قلبه للايمان يضرب رقابهم على الدين ان ذلك الرجل هل هو ابو بكر فقال لا فقل فعمر قال لا الخ ، راجع مسند أحمد ج ٣ ص ٣٣ والرواية تهمل اسم السائل الذي توهم ان الشخص الذي وصفه النبي صلى الله عليه وآله هو ابو بكر او عمر واذا لم يكن ابو بكر وعمر معروفين بشجاعة وبسالة في المشاهد الحربية على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فلا بد ان امرا آخر دعى السائل الى ان يسأل ذينك السؤلين والبقية أتركها لك .

انها الظرف الطبيعي للوصية ولا بد انها هما اللتان عنتهما الرواية التي تقول ان بعض نساء النبي ارسلن رسولا الى اسامة لأخيره عن السفر^(١) فاذا علمنا هذا وعلمنا ان هذا لم يكن باذن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والا لما امره بالاسراع بالرحيل لما قدم عليه بعد ذلك وان سفره مع من معه كان يعيق عن تحقق النتائج التي انتجها يوم السقيفة خرجت لدينا قضية مرتبة الحلقات على اسلوب طباعي بعز ما ذهبنا اليه من رأي •

ومذهب الشيعة في تفسير ما فام به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من تجنيد جيش اسامة معروف وهو انه احس بأن انفاقا ما بين جملة من اصحابه على امر معين ، وقد يجعل هذا الاتفاق منهم جهة معارضة لعلي •

ونحن ان شككنا في هذا فلا نتك في أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد جعل أبا بكر وعلياً في كفتي الميزان مرارا امام المسلمين جميعا ليروا بأعينهم انها لا يستويان في الميزان العادل والا فهل ترى اعفاء ابي بكر من قراءة التوبة على الكافرين بعد ان كلف بذلك امرا طبيعيا ولماذا انتظر الوحي وصول الصديق الى منتصف الطريق لينزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويأمره باسترجاعه وارسال علي للقيام بالمهمة أفكان عبثا او غفلة او امرا ثالثا وهو ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) احس بأن المنافس المنحرف لمعارضة ابن عمه ووصيه هو ابو بكر فشاء وشاء له ربه تعالى أن يرسل ابا بكر ثم يرجعه بعد ان يتسامع الناس جميعا بارساله ليرسل عليا الذي هو كنفسه ليوضح للمسلمين مدى الفرق بين الشخصين وقيمة هذا المنافس الذي لم يأتمنه الله على تبليغ سورة الى جباة فكيف بالخلافة والسلطنة المطلقة •

(١) راجع الجزء الاول من شرح النهج ص ٥٣ •

اذن فنخرج من هذا العرض الذي فرض علينا الموضوع أن
نختصره بنتيجتين :

الاولى : ان الخليفة كان يفكر في الخلافة ويهاها وقد اقبل عليها
بشغف ولهفة •

الثانية ان الصديق والفاروق وأبا عبيدة كانوا يشكلون حزبا
سياسيا مهما لا نستطيع ان نضع له صورة واضحة الخطوط ، ولكننا
نستطيع ان نؤكد وجوده بدلائل متعددة ، ولا ارى في ذلك ما ينقص من
شأنهم أو يحط من مقامهم ، ولا بأس عليهم ان يفكروا في أمور الخلافة
ويتفقوا فيها على سياسة موحدة اذا لم يكن لرسول الله (صلى الله عليه
 وآله وسلم) نص في الموضوع ولا يبرؤهم اذا كان النص ثابتا بعدهم عن
الهوى السياسي وارتجال فكرة الخلافة في ساعة السقيفة من المسؤولية
أمام الله وفي حكم الضمير •

★ ★ ★

لست الآن بصدد تحليل الموقف الذي اشتبك فيه الأنصار مع أبي
بكر وعمر وأبي عبيدة وشرح ما يدل عليه من نفسية المجتمع الاسلامي
ومزاجه السياسي وتطبيق قصة السقيفة على الاصول العميقة في الطبيعة
العربية ، فان ذلك كله خارج عن الحدود القريبة للموضوع وانما أريد
أن ألاحظ أن الحزب الثلاثي الذي قدر له أن يلي الامور يومئذ كان له
معارضون على ثلاثة أقسام :

الاول : — الانصار الذين نازعوا الخليفة وصاحبيه في سقيفة
بني ساعدة ووقعت بينهم المحاوراة السابقة التي انتهت بفوز قریش بسبب
تركز فكرة الوراثة الدسية في الذهنية العربية وانشقاق الانصار على
انفسهم لتمكن النزعة القبلية من نفوسهم •

الثاني : - الأمويون الذين كانوا يريدون ان يأخذوا من الحكم بنصيب ويسترجعوا شيئاً من مجدهم السياسي في الجاهلية وعلى رأسهم أبو سفيان •

الثالث : - الهاشميون واهصائهم كعمار وسلمان وأبي ذر والمقداد رضوان الله عليهم وجماعات من الناس الذين كانوا يرون البيت الهاشمي هو الوارث الطبيعي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحكم الفطرة ومناهج السياسة التي كانوا يالفونها •

واشتبك ابو بكر وصاحبه في النزاع مع القسم الاول في سقيفة بني ساعدة وركزوا في ذلك الموقف دفاعهم عما زعموا من حقوق على نقطة كانت ذات وجهة في نظر كثير من الناس فان قريشا ما دامت عشيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخاصنه فهي أولى به من سائر المسلمين وأحق بخلافته وسلطانه •

وقد انتفع ابو بكر وحزبه باجتماع الانصار في السقيفة من ناحيتين:
(الاولى) ان الانصار سجلوا على انفسهم بذلك مذهباً لا يسمح لهم بأن يقفوا بعد ذلك الى صف علي ويخدموا قضينه بالمعنى الصحيح كما سنوضحه قريباً •

(الثانية) ان ابا بكر الذي خدمته الظروف فاقامت منه المدافع الوحيد عن حقوق المهاجرين في مجتمع الانصار لم يكن ليتهاى له ظرف أوفق بمصالحه من ظرف السقيفة اذ خلا الموقف من اقطاب المهاجرين الذين لم يكن لتنتهي المسألة في محضرهم الى نتيجتها التي سجلتها السقيفة في ذلك اليوم •

وخرج ابو بكر من السقيفة خليفة وقد بايعه جمع من المسلمين الذين اخذوا بوجهة نظره في مسألة الخلافة او عز عليهم ان يتولواها سعد بن عباد •

ولم يعبأ الحاكمون بمعارضة الامويين وتهديد أبي سفيان وما أعلنه من كلمات الثورة بعد رجوعه من سفره الذي بعثه فيه رسول الله (ص) لجباية الاموال لعلهم بطبيعة النفس الاموية وشهواتها السياسية والمادية فكان من السهل كسب الامويين الى جانب الحكم القائم كما صنع أبو بكر فأباح لنفسه أو أباح له عمر بتعبير اصح كما تدل الرواية (١) أن يدفع لأبي سفيان جميع ما في يده من أموال المسلمين وزكواتهم (٢) ثم جعل للامويين بعد ذلك حظا من العمل الحكومي في عدة من المرافق الهامة .

وهكذا نجح الحزب الحاكم في نقطتين ولكن هذا النجاح جره الى تناقض سياسي واضح لأن ظروف السقيفة كانت تدعو الحاكمين الى أن يجعلوا للقرابة من رسول الله (ص) حسابا في مسألة الخلافة وبفروا مذهب الوراثة للزعامة الدينية غير ان الحال تبدلت بعد موقف السقيفة والمعارضة اتخذت لها لونا جديدا وواضحا كل الوضوح يتلخص في أن قريشا اذا كانت أولى برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من سائر العرب لأنه منها فبنو هاشم أحق بالأمر من بقية فريش .

وهذا ما أعلنه علي حين قال : اذا احتج عليهم المهاجرون بالقرب من رسول الله (ص) كانت الحججة لنا على المهاجرين بذلك قائمة فان فلجت حجتهم كانت لنا دونهم والا فالانصار على دعوتهم ، ووضحه العباس لابي بكر في حديث له معه اذ قال له : وأما قولك نحن شجرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) فانكم جيرانها ونحن أغصانها .

(١) راجع شرح النهج الجزء الاول ص ١٣٠ .

(٢) قد نستطيع أن نجيب على ضوء هذه القصة عما عرض لنا من سؤال في بداية هذا الفصل عن موقف الخليفتين لو قدر لهما أن يقفا موقف علي الذي كان يفرض عليه أن يعري كثيرا من أمثال أبي سفيان بالمال والجاه .

وقد كان علي الذي تزعم معارضة الهاشيين مصدر رعب شديد في نفوس الحاكمين لأن ظروفه الخاصة كانت تمدّه بقوة على لوتين من العمل الايجابي ضد الحكومة القائمة : -

(احدهما) ضم الاحزاب المادية الى جانبه كالأمويين والمغيرة بن شعبة وأمثالهم ممن كانوا قد بدأوا يعرضون اصواتهم للبيع ويفاضون الجهات المختلفة في اشترائها بأضخم الأثمان كما نعرف ذلك من كلمات أبي سفيان التي واجه بها خلافة السقيفة يوم وصوله الى المدينة وحديثه مع علي وتحريضه له على الثورة وميله الى جانب الخليفة وسكوته عن المعارضة حينما تنازل له الخليفة عن أموال المسلمين التي كان قد جباها في سفره وموقف عتاب بن أسيد الذي سنشير الى سره في هذا الفصل .

واذ قد كان الهوى المادي مستوليا على جماعة من الناس يومئذ ومن الواضح ان عليا كان يتمكن من اشباع رغبتهم بما خلفه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الخمس وغلالت اراضيّه في المدينة وفدك النبي كانت ذات نتاج عظيم كما عرفنا في الفصل السابق .

والطور الآخر من المقاومة التي كان علي مزودا بامكانياتها ما لمسح اليه بقوله : احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة ، وأعني بذلك أن الفكرة العامة يومئذ التي اجمعت على تفديس أهل البيت والاعتراف لهم بالامتياز العظيم بقربهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت سندا قويا للمعارضة .

وفد رأى الحزب الحاكم ان موقفه المادي حرج جدا لأن اطراف المملكة التي نجبى منها الأموال لا تخضع للحكم الجديد الا اذا استقرت دعائمه في العاصمة والمدينة بعد لم تخضع له خضوعا اجماعيا .

ولئن كان أبو سفيان أو غير ابي سفيان قد باع صوته للحكومة فمن الممكن أن يفسح المعاملة اذا عرض عليه شخص آخر اتفاقا أكثر منها

ربحا وهذا ما كان يستطيع علي أن يقوم به في كل حين فيجب والحالة هذه أن تنتزع من علي الذي لم يكن مستعدا للمقابلة في تلك الساعة الأموال التي صارت مصدرا من مصادر الخطر على مصالح الحزب الحاكم ليضمن بقاء الأنصار على نصرتهم وعدم قدرة المعارضين على انشاء حزب من أصحاب المطامع والأهواء يومذاك .

ولا يجوز ان نستبعد هذا التقدير لسياسة الفئة المسيطرة ما دام منطبقا على طبيعة السياسة التي لا بد من انتهاجها . وما دمننا نعلم ان الصديق اشترى صوت الحزب الأموي بالمال فتنازل لأبي سفيان عن جميع ما كان عنده من أموال المسلمين وبالجاء ايضا اذ ولى ابن ابي سفيان فقد جاء ان ابا بكر لما استخلف قال ابو سفيان مالنا ولأبي فضيل انما هي بنو عبد مناف فقيل له انه قد ولى ابنك قال : وصلته رحم (١) .

فلا غرابة في أن ينتزع من أهل البيت أموالهم المهمة ليركز بذلك حكومته أو أن يخشى من علي (ع) ان يصرف حاصلات فدك وغير فدك على الدعوة الى نفسه .

وكيف نستغرب ذلك من رجل كالصديق وهو الذي قد انخذ المال وسيلة من وسائل الاغراء واكتساب الأصوات حتى اتهمه بذلك معاصرة له من مؤمنات ذلك الزمان فقد ورد ان الناس لما اجتمعوا على أبي بكر قسم قسما بين نساء المهاجرين والانصار فبعت الى امرأة من بني عدي بن النجار قسمها مع زيد بن ثابت فقالت : ما هذا ؟ قال : قسم قسمه ابو بكر للنساء قالت : اتراشوني عن ديني والله لا اقبل منه شيئا فردته عليه (٢) .

(١) راجع تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٢) شرح النهج ج ١ ص ١٣٣ .

وانا لا ادري من اين جاء الى الخليفة (رضي الله تعالى عنه) هذا المال
ما دامت الزكوات التي جمعها الساعي قد صارت من نصيب بطنه وحدها
ان لم يكن من بقية الاموال التي خلفها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
وكان اهل البيت يطالبون بها •

وسواء اصح هذا التقدير او لا فان المعنى الذي نحاول فهمه من
هذه الرواية هو أن بعض معاصري الصديق احس بما نحس به على ضوء
معلوماتنا التاريخية عن تلك الايام •

ولا ننس ان نلاحظ ان الظروف الاقتصادية العامة كانت تدعو الى
الارتفاع بمالية الدولة والاهتمام باكتسابها استعدادا للطوارئ المتوقعة
فلعل هذا حدى بالحاكمين الى انتزاع فذك كما يتبين ذلك بوضوح من
حديث لعمر مع ابي بكر يمنعه فيه عن تسليم فذك الى الزهراء ويعلل
ذلك بان الدولة في حاجة الى المال لانفاقه في توطيد الحكم وتأديب
العصاة والقضاء على الحركات الانفصالية التي قد يقوم بها المرتدون •

ويظهر من هذا رأي للخليفين في الملكية الفردية هو ان للخليفة
الحق في مصادرة اموال الناس لانفاقها في امور المملكة وشؤون الدولة
العامة بلا تعويض ولا استئذان فليس للفرد ملكية مستقرة لامواله وعقاره
في حال احتياج السلطات الى شيء منها وقد ذهب الى هذا الرأي كثير
من الخلفاء الذين انتهى اليهم الامر بعد ابي بكر وعمر فامتلا تأريخهم
بالمصادرات التي كانوا يقومون بها غير ان ابا بكر لم يطبق هذا الرأي
الا في املاك بنت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خاصة •

وقد تردد الحزب الحاكم في معالجة الاسلوب الثاني من المعارضة
بين اثنتين : —

«احدهما» : ان لا يقر للقرابة بشأن في الموضوع ومعنى هذا
انه ينزع عن خلافة ابي بكر ثوبها الشرعي الذي البسها اياه •

«والاخرى» : ان يناقض نفسه فيضل ثابنا على مبادئه التي اعلنها في السقيفة ولا يرى حقا للهاشيميين ولا امتيازاً لهم في مقاييس الرجال او يراه لهم ولكن في غير ذلك الظرف الذي يكون معنى المعارضة فيه مقابلة حكم قائم ووضع تعاقد عليه الناس .

واختارت الفئة المسيطرة ان تثبت على آرائها التي روجتها في مؤتمر الانصار وتعرض على المعارضين بأن مخالفتهم بعد بيعه الناس للخليفة ليست الا احداثاً للفتنة المحرمة في عرف الاسلام .

وهذا هو الاسلوب الوقني الذي اتخذه الحاكمون للقضاء على هذا الجانب من المعارضة الهاشمية وقد ساعدتهم الظروف الاسلامية الخاصة يومئذ على نجاحه كما سنوضحه .

غر اننا نحس ونحن ندرس سياسة الحاكمين بأنهم انتهجوا منذ اللحظة الاولى سياسة معينة تجاه آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) للقضاء على الفكرة التي أمدت الهاشيميين بقوة على المعارضة كما خنقوا المعارضة نفسها ونستطيع أن نصف هذه السياسة بأنها تهدف الى الغاء امتياز البيت الهاشمي وابعاد انصاره والمخلصين له عن المرافق الهامة في جهاز الحكومة الاسلامية يومئذ وتجربده عما له من الشأن والمقام الرفيع في الذهنية الاسلامية .

وقد يعزز هذا الرأي عدة ظواهر تاريخية :

الاولى : سيرة الخليفة وأصحابه مع علي التي بلغت من الشدة أن عمر هدد بحرق بيته وان كانت فاطمة فيه ، ومعنى هذا اعلان ان فاطمة وغير فاطمة من آلها ليس لهم حرمة نمنعهم عن أن يتخذ معهم نفس الطريقة التي سار عليها مع سعد بن عباد حين أمر الناس بقتله ومن صور ذلك العنف وصف الخليفة لعلي بأنه مرب لكل فتنة وتشبيهه

له بام طحال أحب الى أهلها اليها البغي وقد قال عمر لعلي بكل وضوح
ان رسول الله (ص) منا ومنكم *

«الثاني»: ان الخليفة الاول لم يشارك شخصا من الهاشيين في
شأن من شؤون الحكم المهمة ولا جعل فيهم واليا على شبر من المملكة
الاسلامية الواسعة مع أن نصيب الامويين في ذلك كان عظيما *

وأنت تفهم بوضوح أن هذا وليد سياسة متعمدة من محاورة
وقعت بين عمر وابن عباس أظهر فيها تخوفه من تولية الثاني حمص لانه
يخشى اذا صار الهاشميون ولاية على أقطار المملكة الاسلامية ان يموت
وهم كذلك فيحدث في أمر الخلافة ما لا يريد ^(١) *

ونحن اذا عرفنا من رأي عمر أن ظفر بيت من البيوت الطامحة
الى السلطان بالولاية في الاقطار الاسلامية يهيؤهم لنيل الخلافة والمركز
الاعلى ولاحتظنا أن الامويين ذوي الالوان السياسية الواضحة كان فيهم
ولاة احتلوا الصدارة في المجالات الادارية أيام ابي بكر وعمر وأضفنا
الى ذلك أنه كان يعلم على أقل تقدير بان الشورى التي ابتكرها سوف
تجعل من شيخ الامويين عثمان خليفة خرجنا بنتيجة مهمة وتقدير تاريخي
تدل على صحته عدة من الظواهر وهو أن الخلفيتين كانا يهيئان
للسلطان الاموي أسبابه ومعداته وهما يعلمان حق العلم ان انشاء كيان
سياسي من جديد للامويين خصوم بني هاشم القدامى معناه تقديم
المنافس للهاشيين في زعيم اموي وتطور المعارضة الفردية للبيت الهاشمي
الى معارضة بيت مستعد للنزاع والمنافسة أكمل استعداد *

ومن شأن هذه المعارضة انها تطول وتتسع لانها ليست متمثلة في

(١) راجع مروج الذهب على هامش الجزء الخامس من تاريخ ابن
الاثير ص ١٢٥ *

شخص بل في بيت كبير ، ونستطيع ان نفهم من هذا ان سياسة الصديق وعمر هي التي وضعت الحجر الاساسي للملك بني امية حتى يضننا بذلك المنافس لعلي وآل علي على طول الخط (١) .

«الثالث» عزل الخليفة لخالد بن سعيد بن العاص عن قيادة الجيش الذي وجهه لفتح الشام بعد أن أسندها اليه لا لشيء الا لأن عمر نبهه الى نزعة الهاشمية ومبله الى آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وذكره بموقفه تجاههم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (٢) .

ولو كنا نريد التوسع في دراسة هذه الناحية لعطفنا على هذه الشواهد قصة الشورى العمرية التي نزل فيها عمر (رضي الله تعالى عنه) بعلي (ع) الى صف اشخاص خمسة لا يكافئون عليا في شيء من معانيه المحمدية ، وقد كان الزبير وهو أحد الخمسة يرى يوم نوفي الرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان الخلافة حق شرعي لعلي فلا حظ كيف انتزع عمر هذا الرأي من عقله واعده للمنافسة بعد حين اذ جعله احد السنة الذين فيهم علي .

واذن فقد كان الفئة الحاكمة تحاول ان تساوي بين بني هاشم وسائر الناس وترتفع برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الاختصاص بهم لتتنزع بذلك الفكرة التي كانت تزود الهاشمين بطاقة على المعارضة ولئن اطمأن الحاكمون الى ان علما لا شور عليهم في تلك الساعة الحرجة على الاسلام فهم لا يأمنون من انفاضه بعد ذلك في كل حين ومن الطبيعي حنئذ ان يسارعوا الى الاجهاز على كلنا قوته المادية

(١) وهذا هو السر السياسي الذي غفل عنه الباحثون في قصة الشورى وقد جاء عن عمر انه هدد السنة الذين أوكل اليهم الامر بمعاوية وتنبأ لهم بأنه سيملك الامر كما في شرح النهج ج ١ ص ٦٢ وهذا ان دل على فراسته فهو على لون سياسته أدل .

(٢) راجع شرح النهج ج ١ ص ١٣٥ .

والمعنوية ما دامت الهدنة قائمة قبل ان يسبقهم الى حرب اكول •

ومن المعقول بعد هذا أن يقف الخليفة موقفه التاريخي المعروف من الزهراء في قضية فذك فهو موقف تلاقي فيه الغرضان وتركز على الخطين الاساسيين لسياسته لان الدواعي التي بعثته الى انتزاع فذك كانت تدعوه الى الاستمرار على تلك الخطة ليسلب بذلك من خصمه الثروة التي كانت سلاحا قويا في عرف الحاكمين يومذاك ويعزز بها سلطانه والا فما الذي كان يمنعه عن تسليم فذك للزهراء بعد ان اعطته الوعد القاطع بأن تصرف منتوجاتها في سبيل الخير ووجوه المصلحة العامة ^(١) الا انه خاف منها أن تفسر وعددها بما يتفق مع صرفها لغلات فذك في المجالات السياسية وما الذي صده عن ارضاء فاطمة بالتنازل لها عن حصته ونصيب الصحابة اذا صح ان فذكا ملك للمسلمين سوى انه اراد ان يقوي بها خلافته •

وأیضا فانا اذا عرفنا ان الزهراء كانت سندا قويا لقرينها في دعوته الى نفسه ودليلا يحتج به انصار الامام على احقيته بالامر نستوضح ان الخليفة كان موقفا كل التوفيق في موقفه تجاه دعوى الزهراء للنحلة وجاريا على المنهج السياسي الذي كان يفرضه عليه الظرف الدقيق اذ اغتنم الفرصة المناسبة لافهام المسلمين بصورة لبقة وعلى اسلوب غير مباشر بأن فاطمة امرأة من النساء ولا يصح ان تؤخذ آراؤها ودعاؤها دليلا في مسألة بسيطة كفذك فضلا عن موضوع كالخلافة وانها اذا كانت تطلب ارضا ليس لها بحق فمن الممكن ان تطلب لقرينها المملكة الاسلامية كلها وليس له فيها حق •

ونخرج من البحث بنتيجة وهي ان تأميم الصديق لفذك يمكن تفسيره

١ — بأن الظرف الاقتصادي دعى الى ذلك •

(١) راجع شرح النهج ج ٤ ص ٨٠ •

٢ - بأن أبا بكر خشي أن يصرف علي ثروة قرينته في سبيل
التوصل الى السلطان •

وان موقفه من دعاوى الزهراء بعد ذلك واستبساله في رفضها قد
يكون مرده الى هذين السببين :

١ - الى مشاعر عاطفية كانت تنطوي عليها نفس الخليفة رضي
الله عنه عرضنا لجملة من أسبابها فيما سبق •

٢ - وحدة سياسية عامة بنى عليها الصديق سيرته مع الهاشميين
وقد تبيينها من ظواهر الحكم يومئذ •

★ ★ ★

لعل أعظم رفم قياسي ضربه أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام
للتضحية في سبيل الاسلام والاخلاص للمبدأ اخلاصاً جرده عن
جميع الاعتبارات الشخصية وأقام منه حقيقة سامية سمو المبدأ ما بقي
للمبدأ حياة هو الرقم الذي سجله بموقفه من خلافة الشورى وقدم بذلك
في نفسه مثلاً أعلى للتفاني في المبدأ الذي صار شيئاً من طبيعته •

ان كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد تمكن من محو
ضلال الوثنية فقد استطاع ان يجعل من علي بما أفاض عليه من حقائق
نفسه عينا ساهرة على القضية الالهية فنامت فيه الحياة الانسانية بأهوائها
ومشاعرها وصار يحيا بحياة المبدأ والعقيدة (١) •

(١) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : علي مع الحق
والحق مع علي • ولن يفترقا حتى يردها علي الحوض يوم القيامة اجمع
تاريخ بغداد للخطيب ج ١٤ ص ٣٢١ وتفسير الرازي ج ١ ص ١١١ وكفاية
الطالب للكنجي ص ١٣٥ والمناقب لاختط خوارزم ص ٧٧ وقال « ص » :
اللهم ادر الحق معه حيث دار ، راجع مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٢٥ وكنز
العمال ج ٦ ص ١٧٥ وجامع الترمذي ج ٢ ص ٢١٣ •

وان كان للتضحية الانسانية الفاضلة كتاب فأعمال علي عنوان ذلك الكتاب المشع باضواء الخلود (١) .

وان كان لمبادئ السماء التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تعبير عملي على وجه الارض فعلي هو تعبيرها الحي على مدى الدهور والايال .

وان كان النبي (ص) قد خلف في أمته عليا والقرآن (٢) فانما جمع بينهما ليكون القرآن تفسيرا لمعاني علي العظيم ولتكون معاني علي انموذجا لمثل القرآن الكريم .

وان كان الله تعالى قد جعل عليا نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في آية المباهلة (٣) فلاجل أن يفهم المسلمون انه امتداد طبيعي لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وشعاع متألق من روحه العظيمة .

وان كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد خرج من مكة مهاجرا خائفا على نفسه وخلف عليا على فراشه ليموت بدلا عنه فمعنى ذلك ان المبدأ المقدس هو الذي كان يرسم للعظيمين خطوط حياتهما واذا كان لا بد للقضية الالهية من شخص تظهر به وآخر يموت في سبيلها فيلزم أن يبقى رجلها الاول لتحيا به ويقدم رجلها الثاني نفسه قربانا لتحيا به أيضا .

وان كان علي هو الذي أباحت له السماء خاصة النوم في المسجد

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لضربة علي خير من عبادة الثقلين ، أو قال : لمبارزة علي لعمر أفضل من أعمال أمتي الى يوم القيامة ، راجع المستدرک للحاكم ج ٣ ص ٣٢ .

(٢) قال رسول الله (ص) : اني تارك فيكم الثقلين أو الخليفين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، راجع الصواعق المحرقة ص ١٣٦ .

(٣) راجع تفسير الرازي وأسباب النزول للواحدي .

والدخول فيه جنباً^(١) فمفهوم هذا الاختصاص ان في معانيه معنى المسجد لأن المسجد رمز السماء الصامت في دنيا المادة وعلي هو الرمز الالهي الحي في دنيا الروح والعقيدة •

وان كانت السماء قد امدحت فنوه علي وأعلنت عن رضاها عليه اذ قال المنادي : لا سيف الا ذو الففار ولا فتى الا علي^(٢) فانها عنت بذلك ان فتوة علي وحدها هي الرجولة الكاملة التي لا يرتفع الى مداها انسان ولا ترقى الى افقها بطولة الابطال واخلاص المخلصين •

ومن مهزلة الأقدار ان هذه الفتوة التي قدسها الهاتف الالهي كانت عيباً في رأي مشايخ السقيفة ونقصاً في علي يؤاخذ عليه وينزل به عن الصديق الذي لم يكن يمتاز عليه الا بسنين فضاها كافرًا مشركاً •

وأنا لا أدري كيف صار الازدواج بين الجاهلية والاسلام في حياة شخص واحد مجداً يمتاز به عن خلصت حياته لها لله •

ولئن ظهرت للناس في البحوث الجديدة القوة الطبيعية التي تجعل الاجسام الدائرة حول المحور تسير على خط معين نلقد ظهرت في علي قبل مئات السنين قوة مثلها ولكنها ليست من حقائق الفيزياء بل من فوى السماء وهي التي جعلت من علي مناعة طبيعية للاسلام حفظت له مقامه الأعلى ما دام الامام حياً ومحوراً تدور عليه الحياة الاسلامية لتستمد منه روحانيته وثقافتها وروحها وجوهرها سواء آكان على رأس الحكم أو لا •

(١) راجع مسند الامام احمد ج ٤ ص ٣٦٩ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٢٥ وشرح النهج لابن ابي الحديد ج ٢ ص ٤٥١ وتذكرة سبط ابن الجوزي ومناقب الخوارزمي وتاريخ الخلفاء للسيوطي والصواعق لابن حجر والخصائص للنسائي •

(٢) ذكر ذلك الطبري في تاريخه ج ٣ ص ١٧ وابن هشام في سيرته وابن ابي الحديد في شرح النهج والخوارزمي في المناقب •

وقد عملت هذه القوة عملها السحري في عمر نفسه فجذبته الى خطوطها المستقيمة مرارا حتى قال : لولا علي لهلك عمر ، وظهر تأثيرها الجبار في التفاف المسلمين حوله في اليوم الذي اسندت فيه مقدرات الخلافة الى عامة المسلمين ذلك الالتفاف الفذ الذي يقل مثيله في تاريخ الشعوب .

ونعرف من هذا ان عليا بما جهزته السماء به من تلك القوة كان ضرورة من ضرورات الاسلام^(١) التي لا بد منها وشمسا يدور عليها الفلك الاسلامي بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بحسب طبيعته التي لا يمكن ان تقاوم حتى التجأ الفاروق الى مسيرتها كما عرفت .

ويتجلى لدينا ايضا ان الانقلاب الفجائي في السياسة الحاكمة لم يكن ممكنا يومئذ لأنه - مع كونه طفرة - يناقض تلك القوة الطبيعية المركزة في شخصية الامام فكان من الطبيعي أن تسير السياسة الحاكمة في خط منحني حتى تبلغ النقطة التي وصل اليها الحكم الأموي تفاديا من تأثير تلك القوة الساهرة على الاعتدال والانتظام كما ينحني السائق بسيارته عندما ينحرف بها الى نقطة معاكسة تحذرا من القوة الطبيعية التي تفرض الاعتدال في السير . وهذا الفصل الرائع من عظمة الامام يستحق دراسة وافية مستقلة قد نقوم بها في بعض الفرص لنكشف بها عن شخصية علي المعارض للحكم والساهر على قضية الاسلام والموفق بين حماية القوة الحاكمة من الانحراف وبين معارضتها في نفس الوقت .

وان كانت مواقف الامام كلها رائعة ، فموقفه في الخلافة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من اكثرها روعة .

(١) وعلى ضوء ما بيناه نفهم قول رسول الله « من ، لعلني : لا ينبغي ان اذهب الا وانت خليفتي ، وقوله له عندما تهيأ للخروج الى غزوة تبوك : لا بد من ان اقيم او تقيم ، راجع خصائص النساء ص ٧ ومسند الامام احمد ج ١ ص ٢٢١ ومناقب الخواري ص ٧٥ وذخائر العقبى ص ٨٧ .

وان كانت العقيدة الالهية تريد في كل زمان بطلا يفتديها بنفسه
فهي تريد أيضا بطلا يتقبل القربان ويعزز به المبدأ ، وهذا هو الذي بعث
بعلي الى فراش الموت وبالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الى مدينة
النجاة يوم الهجرة الاغر كما أشرنا اليه قريبا ولم يكن ليتيها للامام
في محنته بعد وفاة أخيه ان يقدم لها كلام البطلين لأنه لو ضحى بنفسه
في سبيل توجيه الخلافة الى مجراها الشرعي في رأيه لما بقي بعده من
يمسك الخيط من طرفيه وولدا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
طفلان لا يتيها لهما من الامر ما يريد .

وقف علي عند مفترق طريقين كل منهما حرج وكل منهما شديد على
نفسه : -

أحدهما : أن يعلن الثورة المسلحة على خلافة ابي بكر .

والآخر ان بسكت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا ، ولكن
ماذا كان يترقب للثورة من نتائج هذا ما نريد ان تبينه على ضوء
الظروف التاريخية لتلك الساعة العصية .

ان الحاكمين لم يكونوا ينزلون عن مراكزهم بأدنى معارضة وهم من
عرفناهم حماسة وشدة في أمر الخلافة . ومعنى هذا انهم سيقابلون
ويدافعون عن سلطانهم الجديد ، ومن المعقول جدا حينئذ ان يغتنم سعد
ابن عباد الفرصة ليعلمها حربا اخرى في سبيل اهوائه السياسية لأننا
نعلم انه هدد الحزب المنتصر بالثورة عندما طلب منه البيعة وقال : لا والله
حتى أرميكم بما في كنانتي واخضب سنان رمحي واضرب بسيفي
وأقاتلكم بأهل بيتي ومن اطاعني ولو اجتمع معكم الانس والجن ما
بايعتكم . واكبر الظن انه تهيأ الاقدام على الثورة ولم يجرأ على أن
يكون اول شاهر للسيف ضد الخلافة القائمة وانما اكتفى بالتهديد الشديد
الذي كان بمثابة اعلان الحرب وأخذ يترقب تضعضع الأوضاع ليشهر

سيفه بين السيوف فكان حرياً به أن تثور حماسته ويزول تهيبه ويضعف الحزب القائم في نظره إذا رأى صوتاً قوياً يجهر بالثورة فيعيد لها جذعة ويحاول إجلاء المهاجرين من المدينة بالسيف كما أعلن ذلك المتكلم عن لسانه في مجلس السقيفة •

ولا ننسى بعد ذلك الأمويين وتكتلهم السياسي في سبيل الجاه والسلطان وما كان لهم من نفوذ في مكة في سنواتها الجاهلية الأخيرة فقد كان أبو سفيان زعيمها في مقاومة الإسلام والحكومة النبوية وكان عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية أميرها المطاع في تلك الساعة •

وإذا تأملنا ما جاء في تاريخ تلك الأيام ^(١) من أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما توفي ووصل خبره إلى مكة وعامله عليها عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية استخفى عتاب وارتجت المدينة وكاد أهلها يرتدون فقد لا تقتنع بما يعزل به رجوعهم عن الارتداد من العقيدة والایمان كما أني لا أومن بأن مرد ذلك التراجع إلى أنهم رأوا في فوز أبي بكر فوزهم وانتصارهم على أهل المدينة كما ذهب إليه بعض الباحثين لأن خلافة أبي بكر كانت في اليوم الذي توفي فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأكبر الظن أن خبر الخلافة جاءهم مع خبر الوفاة بل تعليل القضية في رأيي أن الأمير الأموي عتاب بن أسيد شاء أن يعرف اللون السياسي الذي اتخذته أسرته في تلك الساعة فاستخفى وأشاع بذلك الاضطراب حتى إذا عرف أن أبا سفيان قد رضي بعد سخط وانتهى مع الحاكمين إلى نتائج في صالح البيت الأموي ظهر مرة أخرى للناس وأعاد الأمور إلى مجاريها وعليه فالصلة السياسية بين رجالات الأمويين كانت قائمة في ذلك الحين • وهذا التقدير يفسر لنا القوة التي تكمن وراء

(١) راجع تاريخ الكامل ج ٢ ص ١٢٣ •

أقوال أبي سفيان حينما كان ساخطا على أبي بكر واصحابه اذ قال : اني لأرى عجاجة لا يطفئها الا الدم ، وقال عن علي والعباس : اما والذي نفسي بيده لأرفعن لهما من أعضادهما * فالامويون قد كانوا متأهين للثورة والانقلاب وقد عرف علي منهم ذلك بوضوح حينما عرضوا عليه أن يتزعم المعارضة ولكنه عرف انهم ليسوا من الناس الذين يعتمد على تأييدهم وانما يريدون الوصول الى اغراضهم عن طريقه فرفض طلبهم وكان من المنتظر حينئذ ان يشقوا عصا الطاعة اذا رأوا الأحزاب المسلحة تتناحر ولم يطمئنوا الى قدرة الحاكمين على ضمان مصالحهم ومعنى انشقاقهم حينئذ اظهارهم للخروج عن الدين وفصل مكة عن المدينة *

واذن فقد كانت الثورة العلوية في تلك الظروف اعلانا لمعارضة دمية تتبعها معارضات دمية ذات أهواء شتى وكان فيها تهيئة لظرف قد يفتنمه المشاغبون ثم المنافقون *

ولم تكن ظروف المحنة تسمح لعلي بأن يرفع صوته وحده في وجه الحكم القائم بل لتناحرت ثورات شتى وتقاتلت مذاهب متعددة الاهداف والاغراض ويضيق بذلك الكيان الاسلامي في اللحظة الحرجة التي يجب أن يلتف فيها المسلمون حول قيادة موحدة ويركزوا قواهم لصد ما كان يترقب أن تتمخض عنه الظروف الدقيقة من فتن وثورات *

ان عليا الذي كان على أتم استعداد لتقديم نفسه قربانا للبدا في جميع ادوار حياته منذ ان ولد في البيت الالهي والى أن قتل فيه قد ضحى بمقامه الطبيعي ومنصبه الالهي في سبيل المصالح العليا التي جعله رسول الله (ص) وصيا عليها وحارسا لها *

وفقدت بذلك الرسالة المحمدية الكبرى بعض معناها فان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما أمره ربه بتبليغ دعوته والانذار برسالاته جمع بني عبد المطلب وأعلن عن نبوته بقوله : (اني والله ما أعلم شابا في

العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتمكم به) وعن امامة اخيه بقوله:
(ان هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا)^(١) ومعنى ذلك
أن امامة علي تكملة طبيعية لنبوته محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وان
الرسالة السماوية قد اعلنت عن نبوة محمد الكبير (ص) وامامة محمد
الصغير في وقت واحد •

ان عليا الذي رباه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وربى
الاسلام معه فكانا ولديه العزيزين كان يشعر باخوته لهذا الاسلام وقد
دفعه هذا الشعور الى افتداء اخيه بكل شيء حتى أنه اشترك في حروب
الردة التي أعلنها المسلمون يومذاك^(٢) ولم يمنعه تزعم غيره لها عن القيام
بالواجب المقدس ، لأن أبا بكر ان كان قد ابتزه حقه ونهب تراثه فالاسلام
قد رفعه الى القمة وعرف له أخوته الصادقة وسجلها بأحرف من نور
على صفحات الكتاب الكريم :

وصد الامام على ترك الثورة ولكن ماذا يفعل ؟ وأي أسلوب
يتخذه لموقفه ؟ هل يحتج على الفئة الحاكمة بنصوص النبي (صلى الله
عليه وآله وسلم) وكلماته التي أعلنت ان عليا هو القطب المعد لأن يدور
عليه الفلك الاسلامي والزعيم الذي قدمته السماء الى أهل الارض •

تردد هذا السؤال في نفسه كثيرا ثم وضع له الجواب الذي تعينه
ظروف محتته وتلزمه به طبيعة الاوضاع القائمة فسكت عن النص الى
حين •

ونحن تبين من الصورة المشوشة التي عرفناها عن تلك الظروف
والاوضاع ان الاعتراض بتلك النصوص المقدسة والاحتجاج بها في ساعة

(١) أخرجه الطبري في تاريخه وابن الاثير في الكامل وابن أبي الحديد
في شرح نهج البلاغة •
(٢) راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ج ٤ ص ١٦٥ •

ارتفع فيها المقياس الزئبقي للأفكار المحمومة والأهواء الملتهبة التي سيطرت على الحزب الحاكم الى الدرجة العالية كان من التقدير المعقول افتراض النتائج السيئة له لأن أكثر النصوص التي صدرت من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن الخلافة لم يكن قد سمعها الا مواطنوه في المدينة من مهاجرين وأنصار فكانت تلك النصوص اذن الامانة العالية عند هذه الطائفة التي لا بد أن يصل عن طريقهم الى سائر الناس في دنيا الاسلام يومئذ والى الاجيال المعاصرة والعصور المتتالية • ولو احتج الامام على جماعة أهل المدينة بالكلمات التي سمعوها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأنه وأقام منها دليلا على امانه وخلافته لكان الصدى الطبيعي لذلك أن يكذب الحزب الحاكم صديق الامة في دعواه وبنكر تلك النصوص التي تمحو من خلافة الشورى لونها الشرعي وتعطل منها معنى الدين •

وقد لا يجد الحق صوتا قويا يرتفع به في قبال ذلك الانكار لأن كثيرا من فريسي وفي مقدمتهم الامويون كانوا طامحين الى مجيد السلطان ونعم الملك وهم برون في تقديم الخليفة على اساس من النص النبوي سجيلا لمذهب الامامة الالهية ، ومنى بقر هذه النظرية في عرف الحكم الاسلامي كان معناها حصر الخلافة في بني هاشم آل محمد الاكرمين وخروج غيرهم من المعركة خاسرا • وقد تلمح هذا اللون من التفكير في قول عمر لابن عباس معللا اقضاء علي عن الامر: ان فومكم كرهوا ان يجمعوا لكم الخلافة والنبوة ^(١) فقد يدلنا هذا على أن اسناد الامر الى علي في بداية الامر كان معناه في الذهنية العامة حصر الخلافة في الهاشميين وليس لذلك تفسير اولى من أن المفهوم لجمهرة من الناس يومئذ من الخلافة العلوية تقرير شكل ثابت للخلافة يستمد شرعيته من

(١) راجع تاريخ الكامل ج ٣ ص ٢٤ •

نصوص السماء لا من انتخاب المنتخبين فعلي ان وجد نصيرا من عليّة
قربش يشجعه على مقاومة الحاكمين فانه لا يجد منهم عضدا في مسألة
النص اذا تقدم الى الناس يحدثهم ان رسول الله (صلى الله عليه وآله
وسلم) قد سجل الخلافة لأهل بيته حين قال : اني مخلف فيكم الثقلين:
كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي الخ *

وأما الانصار فقد سبقوا جميع المسلمين الى الاستخفاف بتلك
النصوص والاستهانة بها اذ حدث بهم الشراة الى الحكم الى عقد مؤتمر
في سقيفة بني ساعدة ليصفقوا على يد واحد منهم فلن يجد علي فيهم اذا
استدل بالنصوص النبوية جنودا للقضية العادلة وشهودا عليها لانهم اذا
شهدوا على ذلك يسجلون على انفسهم تناقضا فاضحا في يوم واحد وهذا
ما يابونه على انفسهم بطبيعة الحال *

وليس في مبايعة الأوس لأبي بكر أو قول من قال : لا نبايع الا عليا
مناقضة كتلك المناقضة لأن المفهوم البديهي من تشكيل مؤتمر السقيفة
ان مسألة الخلافة مسألة انتخاب لا نص فليس الى التراجع عن هذا الرأي
في يوم اعلانه من سبيل *

وأما اعتراف المهاجرين بالامر فلا حرج فيه لأن الانصار لم
يجتمعوا على رأي واحد في السقيفة وانما كانوا يتذاكرون ويتشاورون
ولذا نرى الحباب بن المنذر يحاول بث الحماسة في نفوسهم والاستمالة
بهم الى رأيه بما جلجل به في ذلك الاجتماع من كلام وهو يوضح انهم
جمعوا لتأييد فكرة لم يكن يؤمن بها الا بعضهم *

واذن فقد كان الاماء يقدر انه سوف يدفع الحزب الحاكم الى
انكار النصوص والاستبسال في هذا الانكار اذا جاهر بها ولا يقف الى
جانبه حينئذ صف ينتصر له في دعواه لان الناس بين من قادهم الهوى

السياسي الى انكار عملي للنص يسد عليهم مجال التراجع بعد ساعات وبيّن من يرى ان فكرة النص تجعل من الخلافة وقفا على بني هاشم لا ينازعهم فيها منازع . واذا سجلت الجماعة الحاكمة وانصارها انكارا للنص واكتفى الباقون بالسكوت في الاقل فمعنى هذا ان النص يفقد قيمته الواقعية وتضيع بذلك مستمسكات الامامة العلوية كلها ويؤمن العالم الاسلامي الذي كان بعيدا عن مدينة النبي (ص) على انكار المنكرين لانه منطق القوة الغالب في ذلك الزمان .

ولنلاحظ ناحية اخرى فان علما لو ظفر بجماعة توافقه على دعواه وتشهد له بالنصوص النبوية المقدسة وتعارض انكار الفئة الحاكمة كان معنى ذلك ان ترفض هذه الجماعة خلافة ابي بكر وتعرض لهجوم شديد من الحاكمين ينتهي بها الى الاشتراك في حرب مع الحزب الحاكم المتحمس لكيانه السياسي الى حد بعيد فانه لا يسكت عن هذا اللون من المعارضة الخطرة فمجاهرة علي بالنص كانت تجره الى المقابلة العميلة وقد عرفنا سابقا انه لم يكن مستعدا لاعلان الثورة على الوضع القائم والاشتراك مع السلطات المهيمنة في قتال .

ولم يكن للاحتجاج بالنص اثر واضح من ان تتخذ السياسة الحاكمة احتياطاتها واساليبها الدقيقة لمحو تلك الاحادب النبوة من الذهنبة الاسلامية لانها تعرف حينئذ ان فيها قوة خطر على الخلافة القائمة ومادة خصبة لثورة المعارضين في كل حين .

واني اعتقد أن عمر لو النفط الى ما تنبه اليه الأمويون بعد أن احتج الامام بالنصوص في ايام خلافته واشتهرت بين شيعة من خطرهما لاستطاع أن يقطعها من اصولها ويقوم بما لم يقدر الأمويون عليه من اطفاء نورها وكان اعتراض الامام بالنص في تلك الساعة بنبهه الى ما يجب أن ينتهجه من أسلوب فأشفق على النصوص المقدسة أن تلعب بها

السياسة وسكت عنها على مضض واستغفل بذلك خصومه حتى ان عمر (رضي الله تعالى عنه) نفسه صرح بأن عليا هو ولي كل مؤمن ومؤمنة بنص النبي (١) (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ثم ألم يكن من المعقول ان يخشى الامام على كرامة حبيبه وأخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن تنتقض وهي أعلى عنده من كل نقيس — اذا جاهر بنصوص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو لم ينس موقف الفاروق من رسول الله (ص) حين طلب دواة ليكتب كتابا لا يضل الناس بعده أبدا ، فقال عمر : ان النبي ليهجر أو قد غلب عليه الوجع ، وقد اعترف فيما بعد لابن عباس ان رسول الله (ص) كان يريد أن يعين عليا للخلافة وقد صده عن ذلك خوفا من الفتنة (٢) .

وسواء أكان رسول الله (ص) يريد ان يجر حق علي في الخلافة أولا فان المهم ان تتأمل موقف عمر من طلبه فهو اذا كان مستعدا لاتهام النبي (ص) وجها لوجه بما بنزهه عنه نص القرآن وضرورة الاسلام خوفا من الفتنة فما الذي يمنعه عن اتهام آخر له بعد وفاته مهما تلطفنا في تقديره فلا يقل عن دعوى ان رسول الله (ص) لم يصدر عن أمر الله في موضوع الخلافة وانما اسنخلف عليا بوحى من عاطفته بل كان هذا اولى من تلك المعارضة لأن الفتنة التي تقوم بدعوى على النص أشد مما كان يترقبه عمر من اضطراب فيما اذا كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد خلف نصا تحريريا تامامة علي بعلمه الجميع .

(١) راجع نضائر العقبي ص ٦٧ .

والحديث يدلنا على ان الفاروق كان يميل احيانا الى تغيير الطريقة التي سار عليها الحزب في بداية الامر مع الهاشميين غير ان الطابع السياسي الاول غلب عليه اخيرا .

(٢) راجع شرح النهج ج ٢ ص ١١٤ .

واذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد ترك التصريح بخلافة علي في ساعته الاخيرة لقول قاله عمر فان المفهوم ان يترك الوصي الاحتجاج بالنصوص خوفا من قول قد يقوله :

ونتيجة هذا البحث ان سكوت أمير المؤمنين عن النص الى حين كان يفرضه عليه :

١ - انه لم يكن يجد في رجالات تلك الساعة مسن يطمئن الى شهادته بذلك .

٢ - ان الاعتراض بالنصوص كان من الحري به أن يلفت انظار الحاكمين الى قيمتها المادية فيستعملون شتى الاساليب لخنقها .

٣ - ان معنى الاعتراض بها التهيؤ للشورة بأوسع معانيها وهذا ما لم يكن يريده الامام .

٤ - ان اتهام عمر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في آخر ساعاته عرف عليا بمقدار تفاني الحاكمين في سبيل مراكزهم ومدى استعدادهم لتأييدها والمدافعة عنها وجعله يخاف من تكرار شيء من ذلك فيما اذا أعلن عن نصوص امامته .

★ ★ ★

انتهى الامام الى قرار حاسم ، وهو ترك الشورة وعدم التسليح بالنصوص في وجه الحاكمين جهارا وعلانية الا اذا اطمأن الى قدرته على تجنيد الرأي العام ضد ابي بكر وصاحبيه وهذا ما أخذ يحاوله علي في محنته آنذاك فبدأ يطوف سرا على زعماء المسلمين ورجالات المدينة يعظهم ويذكرهم ببراهين الحق وآياته والى جانبه قريته تعزز موقفه وتشاركه في جهاده السري ولم يكن يقصد بذلك التطواف انشاء حزب ينهيا له القتال به لأننا نعرف ان عليا كان له حزب من الانصار هتف باسمه وحاول الالتفاف حوله وانما أراد ان يمهّد بتلك المقابلات لاجماع الناس عليه .

وهنا تجيء مسألة فدك لتحل الصدارة في السياسة العلوية الجديدة
فان الدور الفاطمي الذي رسم هارون النبوة خطوطه باتقان كان متفقاً مع
ذلك التطواف الليلي في فلسفته وجديراً بأن يقلب الموقف على الخليفة
وينهي خلافة الصديق كما تنتهي القصة التمثيلية لا كما يقوض حكم مركز
على القوة والعدة •

وكان الدور الفاطمي يتلخص في أن تطالب الصديقة الصديق بما
انتزعه منها من اموال وتجعل هذه المطالبة وسيلة للمناقشة في المسألة
الاساسية واعني بها مسألة الخلافة وافهام الناس بأن اللحظة التي عدلوا
فيها عن علي (ع) الى أبي بكر كانت لحظة هوس وشذوذ وانهم بذلك
أخطأوا وخالفوا كتاب ربهم ووردوا غير شربهم •

ولما اخترت الفكرة في ذهن فاطمة اندفعت لتصحيح اوضاع الساعة
وتمسح عن الحكم الاسلامي الذي وضعت قاعدته الاولى في السقيفة
الوحد الذي تلطخ به عن طريق اتهام الخليفة الحاكم بالخيانة السافرة
والعبث بكرامة القانون واتهام نتائج المعركة الانتحائية التي خرج منها ابو
بكر خليفة بمخالفة الكتاب والصواب •

وقد توفرت في المقابلة الفاطمية ناحيتان لا تنهيان للامام فيما لو
وقف موقف قرينته •

احديهما : ان الزهراء أقدر منه بظروف فجيعتها الخاصة ومكائنها
من أبيها على استثارة العواطف وايصال المسلمين بسلك من كهرباء الروح
بأيها العظيم صلوات الله عليه وأيامه الغراء وتجنيدهم لمشاعرهم لقضايا
أهل البيت •

والاخرى : انها مهما تتخذ لمنازعتها من أشكال فلن تكتسب لون
الحرب المسلحة التي تتطلب زعيماً يهيمن عليها ما دامت امرأة وما دام

هارون النبوة في بيته محتفظا بالهدنة التي اعلنها حتى تجتمع الناس عليه ومراقبا للموقف ليتدخل فيه متى شاء متزعا للثورة اذا بلغت حدها الاعلى أو مهدئا للفتنة اذا لم يتهيا له الظرف الذي يريده . فالحوراء بمقاومتها اما ان تحقق انتقاضا اجماعيا على الخليفة واما أن لا تخرج عن دائرة الجدل والنزاع ولا تجر الى فتنة وانشقاق .

واذن فقد أراد الامام صلوات الله عليه أن يسمع الناس يومئذ صوته من فم الزهراء ويبقى هو بعيدا عن ميدان المعركة ينتظر اللحظة المناسبة للاستفادة منها والفرصة التي تجعل منه رجل الموقف . وأراد أيضا أن يقدم لأمة القرآن كلها في المقابلة الفاطمية برهانا على بطلان الخلافة القائمة . وقد تم للامام ما اراد حيث عبرت الزهراء صلوات الله عليها عن الحق العلوي تعبيرا واضحا فيه ألوان من الجمال والنضال .

وتلخص المعارضة الفاطمية في عدة مظاهر : —

الأول : — ارسالها لرسول ينازع أبا بكر في مسائل الميراث ويطالب بحقوقها وهذه هي الخطوة الاولى التي انتهجتها الزهراء صلوات الله عليها تمهيدا لمباشرتها للعمل بنفسها .

الثاني : — مواجهتها بنفسها له في اجتماع خاص وقد أرادت بتلك المقابلة ان تشتد في طلب حقوقها من الحس وفدك وغيرها لتعرف مدى استعداد الخليفة للمقاومة .

ولا ضرورة في ترتيب خطوات المطالبة على أسلوب تتقدم فيه دعوى النحلة على دعوى الميراث كما ذهب الى ذلك اصحابنا بل قد يغلب على ظني تقدم المطالبة بالارث لأن الرواية تصرح بان رسول الزهراء انما كان يطالب بالميراث والأقرب في شأن هذه الرسالة أن تكون أولى الخطوات كما يقضي به التدرج الطبيعي للمنازعة وأيضا فان دعوى الارث أقرب

الطريقين الى استخلاص الحق لثبوت التوارث في التشريع الاسلامي بالضرورة فلا جناح على الزهراء في أن تطلب ابتداء ميراثها من ابيها الذي يشمل فدكا في معتقد الخليفة لعدم اطلاعه على النحلة وليس في هذه المطالبة منافضة لدعوى نحلة فدك اطلاقا لأن المطالبة بالميراث لم تنتج الى فدك خاصة وانما نعلقت بركة النبي (ص) عامة *

الثالث : - خطبتها في المسجد بعد عشرة أيام من وفاة النبي (ص) كما في شرح النهج لابن أبي الحديد *

الرابع : - حديثها مع ابي بكر وعمر حينما زاراهما بقصد الاعتذار منها واعلانها غضبها عليهما وانهما اغضبا الله ورسوله (ص) بذلك (١) *

الخامس : - خطابها الذي ألقته على نساء المهاجرين والأنصار حين اجتماعهن عندها *

السادس : - وصيتها بأن لا يحضر تجهيزها ودفنها أحد من خصومها (٢) وكانت هذه الوصية الاعلان الاخير من الزهراء عن تقميتها على الخلافة القائمة *

وقد فشلت الحركة الفاطمية بمعنى ونجحت بمعنى آخر *

فشلت لأنها لم تطوح بحكومة الخليفة (رضي الله عنه) في زحفها الاخير الخطير الذي قامت به في اليوم العاشر من وفاة النبي (ص) *

ولا نستطيع أن نتبين الامور التي جعلت الزهراء نخسر المعركة غير ان الامر الذي لا ريب فيه ان شخصية الخليفة (رض) من أهم الاسباب التي أدت الى فشلها لأنه من اصحاب المواهب السياسية وقد عالج الموقف بلباقة ملحوظة نجد لها مثالا فيما أجاب به الزهراء من كلام

(١) راجع الامامة والسياسة واعلام النساء *

(٢) راجع حلية الاولياء ج ٢ ص ٤٣ ومستدرک الحاكم ج ٣ ص ١٦٣ وأسد الغابة ج ٥ ص ٥٢٤ *

وجهة الى الأنصار من خطاب بعد انتهائها من خطبتها في المسجد في ما هو يذوب رقة في جوابه للزهاء وإذا به يطوي نفسه على نار متأججة تندلع بعد خروج فاطمة من المسجد • في اكبر الظن • فيقول : ما هذه الدعة الى كل فالة انما هو ثعالة شهيد ذنبه - وقد نقلنا الخطاب كاملا فيما سبق - فان هذا الانقلاب من اللين والهدوء الى الغضب الفائز يدلنا على مقدار ما أوتي من سيطرة على مشاعره وقدرته على مسيطرة الظرف وتمثيل الدور المناسب في كل حين •

ونجحت معارضة الزهاء لانها جهزت الحق بقوة فاهرة وازافت الى طاقته على الخلود في ميدان النضال المذهبي طافه جديدة وقد سجلت هذا النجاح في حركتها كلها وفي محاورتها مع الصديق والقاروق عند زيارتهما لها بصورة خاصة اذ قالت لهما : آرايتكما ان حدثكما حديثا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تعرفانه وتفعلاّن به فمالا نعم فقلت : نشدكما الله ألم تسمعا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : رضا فاطمة من رصاي وسخط فاطمة من سخطي فمن أحب فاطمة فقد أحبني ومن ارضى فاطمة فقد ارضاني ومن اسخط فاطمة فقد أسخطني ^(١) فالأ نعم سمعناه من رسول الله (ص) قالت : فاني أشهد الله وملائكته انكما أسخطنماي وما أرضينماي ولئن لفيت النبي (ص) لأشكونكما عنده ^(٢) •

(١) صحت عن رسول الله (ص) عباثر متعددة بهذا المعنى فقد جاء عنه في الصحيح انه قال لفاطمة ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضائك وقال : فاطمة بضعة مني يربيني ما رابها ويؤذياني ما آذاها - راجع صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٧٤ وصحيح مسلم ج ٤ ص ٢٦١ ومستدرک الحاكم ج ٣ ص ١٥٤ وذخائر العقبى ص ٢٩ والصواعق ص ١٠٥ ومسند أحمد ج ٤ ص ٢٢٨ وجامع الترمذي ج ٢ ص ٢١٩ وابن ماجه ج ١ ص ٢١٦ •

(٢) تجد حديث غضب فاطمة على ابي بكر في صحيح البخاري ج ٥ ص ٥ و ج ٦ ص ١٩٦ وصحيح مسلم ج ٢ ص ٧٢ ومسند أحمد ج ١ ص ٦ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٠٢ وكفاية الطالب ص ٢٢٦ وسنن البيهقي ج ٦ ص ٣٠٠ •

ويعنور لنا هذا الحديث مدى اهتمامها بتركيز الاعتراض على خصيها ومجاهرتهم بغضبها ونقمتها لتخرج من المنازعة بنتيجة لا نريد درسها والانتفاء فيها الى رأي معين لأن ذلك خارج عن دائرة عنوان هذا البحث ولأننا نجل الخليفة عن أن ندخل معه في مثل هذه المناقشات وانما نسجلها لتوضيح أفكار الزهراء صلوات الله عليها ووجهة نظرها فقط فانها كانت تعتقد ان النتيجة التي حصلت عليها هي الفوز المؤكد في حساب العقيدة والدين وأعني بها ان الصديق قد استحق غضب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم باغضابها وآذاها بأذاها لانهما يغضبان لغضبها ويسخطان لسخطها بنص الحديث النبوي الصحيح فلا يجوز أن يكون خليفة الله ورسوله وقد قال الله تبارك وتعالى : (وما كان لکم ان تؤذوا رسول الله ولا تنكحوا أزواجه من بعده ابدا ان ذلكم كان عند الله عظيما • ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا • والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم • يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم • ومن يخلل عليه غضبي فقد هوى) •

- ٤ -

قيسات

« من الكلام الفاطمي »

يوم جاءت الى عدي وتيم
ومن الوجد ما أطل بكها
تمظ القوم في أتم خطاب
حكمت المصطفى به وحكامها
(الأزري)

قبسات

نقتبس هنا عدة عبارات من خطبة الزهراء عليها السلام لنعطيها حقها من التحليل والتوضيح ونفهمها كما هي في عالم الخلود وكما هي في واقعها الرائع قالت : -

«ثم قبضه اليه قبض رافة واختيار ورغبة وايثار فمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عن تعب هذه الدار في راحة قد حفر بالملائكة الأبرار ورضوان الرب الفقار ومجاورة الملك الجبار» .

انظر الى البليغة كيف تركت النعيم المادي كله وملذوذات الحس حين أرادت أن تقرض فردوس ايها وجنته الخالدة لانها رأت في معاني ايها العظيم ما يرتفع على ذلك كله وما قيمة اللذة المادية جنيئة كانت او دنيوية في حساب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الروحي الذي لم يرتفع أحد بالروح الانسانية كما ارتفع بها ولم يبلغ بها احد سواء أوجها المحمدي (ولم يغدها مصلح عداه بالمعقبة الالهية الكاملة التي هي غاية العقول في طيرانها الفكري والشوط الاخير للطواف الانساني حول الحقيقة المقدسة الذي يستقر عنده الضمير وتطمئن اليه الروح) (١) .

فهو اذن : المربي الاكبر للروح ، والقائد الفريد الذي سجلت المعنويات الروحية تحت رايته انتصارها الخالد على القوى المادية في معركتهما القائمة منذ بدأ العقل حياته في وسط المادة .

(١) نقلنا هذه الجملة عن كتابنا - المعقبة الالهية في الاسلام - .

وما دام هو بطل المعركة الفاصلة بين الروحية والمادية الذي ختمت برسالته رسالات السماء فلا غرو ان يكون محور ذلك العالم الروحي الجبار وهذا ما شئت أن تقوله الزهراء حين قالت تصف الفردوس المحمدي : فمحمد عن تعب هذه الدنيا في راحة قد حف بالملائكة الابرار فهو القطب ابدأ في الدنيا والآخرة غير انه في الاولى متعب لانه القطب الذي يجاهد ليقوم دورة الحياة الانسانية عليه على اسلوب خالد وفي الاخرى مرتاح لانه المحور الذي يكهرب الحياة الملائكية بنوره فتخف به الملائكة لتقدم بين يديه آيات الحمد والثناء .

وما دام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الطراز الأسى فلتكن جنته على غرار ملؤها الترف المادي بل هي في اوضح معانيها الترف المعنوي - ان صح التعبير - واي ترف روحي أسى من مجاورة الملك الجبار والظفر برضوان الرب الغفار .

وهكذا وصفت الزهراء جنة أبيها في جملتين فاذا به القطب المتصل بمبدأ النور والشمس التي تحيط بها الملائكة في ديار النور .
وقالت : -

وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ، ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الاقدام تشربون الطرق ، وتقتاتون الورق ، أدلة خاسئين تخافون ان يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد اللثيا والتي ، وبعد ان مني بيهيم الرجال وذؤبان العرب ومردة اهل الكتاب كلما أوقدوا ناراً للحرب اطفأها الله أو نجم قرن للشيطان وفمرت فاعرة من المشركين قذف أخاه في لهواتهم ، فلا ينكفئ حتى يظأ صاخها بأخمسه ، ويخمد لهبها بسيفه مكدودا في ذات الله مجتهدا في أمر الله قريبا من رسول الله (ص) سيد

اولياء الله مشمرا ناصحا مجدا كادحا واتم في رفاهية من العيش وادعون
فاكهون آمنون (١) .

ما أروعها من مقارنة هذه التي عقدتها الزهراء بين أسى طراز من
الكفاءة العسكرية في دنيا الاسلام يومئذ وبين رجولة مفطومة - ان
صح التعبير - من ملكات البطل ومقومات العسكري الموهوب . بين
بسالة هتفت بآياتها السماء والارض وكتبت بمداد الخلود في فهرس
المثاليات الانسانية وشخصية اكتفت من الجهاد المقدس بالوقوف في
الخط الحربي الاخير - العرش - ويا ليتها اقتنعت بذلك عن الفرار
المحرم في عرف الاسلام . في عرف التضحية ، في عرف المفاداة بالنفس
لتوحيد الحكومة السماوية على وجه الارض .

ولا نعرف في تاريخ الانسانية موهبة عسكرية بارعة لها من الآثار
الخيرة في حياة هذا الكوكب كالموهبة العلوية الفذة في تاريخ الابطال
فان مواقف الامام في سوح الجهاد وميادين النضال كانت بحق هي
الركيزة التي قامت عليها دنيا الاسلام وصنعت له تاريخه الجبار .

فعلي هو المسلم الاول في اللحظة الاولى من تاريخ النبوة عندما لعل
الصوت الالهي من فم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم هو بعد ذلك
الغيور الاول والمدافع الاول الذي اسندت اليه السماء تصفية الحساب
مع الانسانية الكافرة .

ان فوز الامام في هذه المقارنة يعني ان له حقا في الخلافة من
ناحيتين : -

(احدهما) : انه الشخص العسكري النريد بين مسلمة ذلك اليوم

(١) تعني بهذا الكلام الجماعة الحاكمة كما سنوضح ذلك في الكلام
على القطعة الآتية .

الذي لم يكن قد فصل فيه تماما المركز السياسي الأعلى عن المقامات العسكرية •

(والاخرى) : ان جهاده الرائع تكشف عن اخلاص أروع لا يعرف الشك اليه سبيلا وجذوة مضطربة بحرارة الايمان لا يجد الخمود اليها طريقا • وهذه الجذوة المتقدة ابدا وذلك الاخلاص الفياض دائما هما الشرطان الاساسيان للزعيم الذي توكل اليه الامة حراسة معنوياتها الغالية وحماية شرفها في التاريخ •

اقرأ حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتاريخ الجهاد النبوي فسوف ترى ان عليا هو الذي أدهش الارض والسماء بمواساته ^(١) وان الصديق (رض) هو الذي التجأ الى مركز القيادة العليا الذي كان محاطا

(١) اخرج الطبري في تاريخه عن ابن رافع : لما قتل علي بن ابي طالب اصحاب الالوية أبصر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جماعة من مشركي قريش فقال لعلي : احمل عليهم ، فحمل عليهم ففرق جمعهم وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي ، قال : ثم أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جماعة من مشركي قريش فقال لعلي : احمل عليهم ، فحمل عليهم ففرق جماعتهم وقتل شيبه بن مالك ، فقال جبرئيل : يا رسول الله ان هذا للمواساة ، فقال رسول الله (ص) : انه مني وأنا منه ، فقال جبريل : وأنا منكما ، قال : قسموا صوتا :

لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي

ولنتأمل جواب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لنلاحظ كيف انه ارتفع بعلي عن مفهوم المواساة الذي يقضي بتعدد محمد وعلي الى مفهوم الوحدة والامتزاج فقال : انه مني وأنا منه ولم يرض بان يفصل الامام عن شخصه لانهما وحدة لا تتجزأ ضربها الله مثلا أعلى تأتم بها الانسانية ويهتدي على ضوئها الابطال والمصلحون في معارج السمو والارتقاء ، وأنا لا أدري كيف حاول الصحابة أو بعض الصحابة ان يفككوا عرى هذه الوحدة ويضعوا بين البطلين اشخاصا ثلاثة كان من الجدير ان لا يفصلوا بهم بين محمد وبين من هو من محمد (ص) •

بعده من ابطال الانصار لحمايته (١) حتى يطمئن بذلك من غوائل الحرب وهو الذي فر يوم أحد (٢) كما فر الفاروق (٣) ولم يبايع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الموت في تلك الساعة الرهيبة التي قل فيها الناصر وتضعضت راية السماء وبايع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الشهادة ثمانية ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الانصار لم يكن هو واحدا منهم كما صرح بذلك ارباب التاريخ (٤) بل لم يرو له رواية المسلمين جميعا قتالا في ذلك الموقف مهما يكن لونه (٥) .

واذن فلماذا وقف مع الثائبين ان كان لم يفر ؟ ألم يكن القتال واجبا ما دام المدافعون لم يبلغوا العدد المطلوب لمقابلة العدو الذي أصاب النبي (ص) بعدة اصابات اضطرته الى الصلاة جالسا .

ولعلنا نعلم جميعا ان شخصا اذا كان في وسط الصراع ومعترك الحرب فلن ينجو من الموت على يد عدوه الا بالفرار او الدفاع بالاشتراك عمليا في المعركة . والصديق اذا لم يكن قد فعل شيئا من هذين وقد نجا بلا ريب فمعنى هذا ان عدوا وقف امام عدوه مكتف اليد فلم يقتله خصمه فهل أشفق المشركون على ابي بكر ولم يشفقوا على محمد وعلي والزبير وابي دجانة وسهل بن حنيف .

وليس لدي من تفسير معقول للموقف الا أن يكون قد وقف الى جوار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكسب بذلك موقفا هو في

(١) راجع عيون الاثر ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) كما يحدثنا بذلك التاريخ الشيعي .

(٣) وقد اعترف هو بذلك وذكره به رسول الله (ص) - راجع شرح النهج ج ٣ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٤) صرح بذلك الواقدي كما في شرح النهج ج ٣ ص ٣٨٨ . وألفريزي في الامتاع ص ١٣٢ .

(٥) اعترف بذلك ابن ابي الحديد ج ٣ ص ٣٨٩ .

طبيعته أبعد نقاط المعركة عن الخطر لاختلاف العدد المخلص في الجهاد يومئذ برسول الله (ص) • وليس هذا ببعيد لأننا عرفنا من ذوق الصديق انه كان يحب أن يكون الى جانب رسول الله (ص) في الحرب لأن مركز النبي (ص) هو المركز المصون الذي تتوفر جميع القوى الاسلامية على حراسته والذب عنه •

وخذ حياة الامام علي(ع) وحياة الصديق وادرسهما فهل تجد في حياة الاول خمودا في الاخلاص او ضعفا في الاندفاع نحو التضحية او ركونا الى الدعة والراحة في ساعة الحرب المقدسة • فارجع البصر هل ترى من فطور • ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير • لأنه سوف يجد روعة واستماتة في سبل الله لا تفوقها استماتة وشخصا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه • فيه استعداد للخلود ما خلده محمد استاذة الاكبر لانه نفسه (ص) (١) •

ثم حدثني عن حياة الصديق (رضي الله تعالى عنه) أيام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهل تجد فيها الا تخاذلا وضعفا في الحياة المبدئية والحياة العسكرية يظهر تارة في التجائه الى العريش واخرى في فراره يوم احد وهزيمته في غزوة حنين (٢) وتلكته عن الواجب حينما أمره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالخروج تحت راية أسامة

(١) بنص آية المباهلة •

(٢) كما في السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٢٣ ، اذ حصر الثابتين بغيره واما فرار الفاروق في ذلك اليوم فقد جاء ما يدل عليه في صحيح البخاري اذ روى باسناده عن شهد يوم حنين انه قال : وانهم المسلمون وانهم معهم فاذا بعمر بن الخطاب في الناس فقلت له : ما شأن الناس ؟ قال : أمر الله • فان هذا يوضح ان عمر كان بين المنهزمين •

للفزو (١) ومرة أخرى في هزيمته يوم خيبر حينما بعثه رسول الله (ص) لاحتلال الوكر اليهودي على رأس جيش فرجع فارا ثم أرسل الفاروق (رضي الله تعالى عنه) وإذا به من طراز صاحبه (٢) حيث نبخرت في ذلك الموقف الرهيب حماسة عمر وبطولته الرائعة في أيام السلم التي اعتز بها الاسلام يوم اسلم كما يقولون ورجع عمر مع اصحابه يَجْبِنُهُمْ وَبَجْبِنُونَهُ (٣) فقال رسول الله (ص) ابي دافع الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله لا يرجع حتى يفتح له (٤) ويشعر كلامه هذا بتعريض بليغ يدغدغ به مشاعر القائدين الفاشلين واعتزاز صريح بعلمه العظيم الذي يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله (٥) .

يا خليفتي المسلمين - أو بعض المسلمين - رضي الله تعالى عنكما أهكذا كان نبكما الذي قمتما مقامه ؟ ألم تتلقيا عنه دروسه الفذة في الجهاد والمعاناة في سبيل الله ؟ ألم يكن في صحبتكما له طوال عقدين حاجز يحجز عن ذلك ؟ ألم نسمعنا الى القرآن الذي أسندت اليكما حراسه والتوفر على نشر مثله العليا في المعبورة وهو يقول : —

(١) فقد جاء في عدة من المصادر ان عمر وابا بكر كانا فيمن جنده النبي صلى الله عليه وآله وسلم للحرب تحت راية اسامة منها في السيرة الحلبية ج ٣ .

(٢) راجع مسند أحمد ج ٥ ص ٢٥٣ ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ٢٧ وكنز العمال ج ٦ ص ٣٩٤ .

(٣) هذا تصوير علوي رائع للقائد الفاشل والجنود المتخاذلين وقد اطلع كل منهما على ضعف الآخر فاخذ يهول الموقف ليجد له من ذلك عذرا في الفرار .

(٤) صحيح البخاري ج ٥ ص ١٨ ومسند أحمد ج ٥ ص ٣٥٣ .

(٥) واكبر الظن أن الجيش الذي سار الامام على رأسه لاحتلال المستعمرة اليهودية هو الجيش الذي فر بالامس ونفهم من هذا مدى تأثير القائد على جيشه وتكهرب الجيش بمشاعره فان عليا استطاع أن يجعل من اولئك الجنود الذين كانوا يجبنون الفاروق في الحملة السابقة ابطالا فاتحين بما سكب في أرواحهم من روحه العظيمة المتدفقة بالحماس والاخلاص .

ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لصال او متجيزا الى فئة فقد باء
بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير *

وقد توافقتني على أن مقام الصديق والفاروق (ض) في الاسلام
يرتفع بهما عن الفرار المحرم فلا بد انهما أولا ووجدا عذرا في فرارهما
ونحن نعلم ان مجال الاجتهاد والتأويل عند الخليفة كان واسعا حتى انه
اعتذر عن خالد لما قتل مسلما متعمدا بأنه اجتهد فأخطأ ^(١) .

عذركما ان الحمام لمبغض وان بقاء النفس للنفس محبوب
لسره طعم الموت والمسوب طالب فكيف يلذ الموت والموت مطلوب
ولنعذر اذا كان فيما قدمناه سبب للاعذار وقد اضطرنا الى ذلك
الوقوف عند المقارنة الفاطمية وما نسجفه من شرح وبوضيح *

قالت :

«تتربصون بنا الدوائر وتتوكلون الاخبار» *

هذا الخطاب موجه الى الحزب الحاكم لأنه هو الذي زعم ما نسبته
الزهاء الى مخاطبتها فيما يأتي من تعليل التسرع الى اتمام البيعة بالخوف
من الفتنة * واذن فهو اتهام صريح له بالتآمر على السلطان واتخاذ التدابير
اللازمة لهذه المؤامرة الرهيبة ووضع الخطط المحكمة لتنفيذها وتربص
الفرصة السانحة للانقضاض على السلطة ويجريد البت الهاشمي منها *

وقد رأينا في الفصل السابق ان الانساق السري بين الصديق
والفاروق وابي عبيدة ^(١) رضي الله عنهم مما تعززه الظواهر التاريخية *

(١) تاريخ ابن شحنة على هامش الكامل ج ١١ ص ١١٤ .
(٢) نعتذر الى سيدنا أبي عبيدة عن ذكر اسمه مجردا عن اللقب ،
وليس هذا ذنب بل ذنب الاجل الذي عجل بروحه قبل أن يصير الامر اليه
فيمنحه الناس لقباً من الالقاب ، وأما لقب الامين فالارجح عندي أنه لم يحصل
←

ولا ينبغي ان نترقب دليلا ماديا افوى من كلام الزهراء الذي بينا اشعاره الى هذا المعنى بوضوح لمعاصرتها لتلك الظروف العصيبة . فلا ريب انها كانت تفهم حوادث تلك الساعة فهما اخص ما يوصف به انه اقرب الى واقعها واكثر اصابة له من دراسة يقوم بها النقاد بعد مئات السنين .

ومن حق البحث ان نسجل ان الزهراء هي اول من أعلنت - ان لم يكن زوجها هو المعلل الاول - عن التشكيلات الحزبية للجماعة الحاكمة واتهمتها بالتآمر السياسي ثم تبعها على ذلك جملة من معاصريها كأئمة المؤمنين صلوات الله عليه ومعاوية بن أبي سفيان - كما عرفنا سابقا - .

وما دام هذا الحزب الذي تجزم بوجوده الزهراء ويشير اليه الامام ويلمح اليه معاوية هو الذي سيطر على الحكم ومفدرات الامة وما دامت الاسر الحاكمة بعد ذلك التي وجهت جميع مرافق الحياة العامة لخدمتها قد طبقت أصول تلك السياسة وعناصر ذلك المنهج الحزبي الذي دوخ دنيا الاسلام فمن الطبيعي جدا ان لا نرى في التاريخ أو على الاقل التاريخ العام صورة واضحة الالوان لذلك الحزب الذي كان يجتهد ابطاله الاولون في تلوين أعمالهم باللون الشرعي الخالص الذي هو أبعد ما يكون عن الالوان السياسية والاتفاقات السابقة .



قالت : -

(فوسستم غير ابلکم ، وأوردتم غير شربکم هذا والعهد قريب ، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، ابدارا زعمتهم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين .



عليه عن طريق النبي « صلى الله عليه واله وسلم » ، ولا عن طريق الناس وانما لقب بالامين لمناسبات حزبية خاصة ليس من شأنها تقرير الالوسمة الرسمية .

أما لعمر الله لقد لقحت فنظرة ريشا تجلب ثم احتلبوها طلاع القعب
دما عبيطا هنالك يخسر المبطلون ويعرف التالون غب ما أسس الاولون
ثم طيبوا عن أنفسكم نفسا وابشروا بسيف صارم وهرج شامل واستبداد
من الظالمين يدع فيأكم زهيدا وجمعكم حصيدا فيا حسرة عليكم) * (١)
لئن كان الصديق وصاحبا يشكلون حزبا ذا طابع خاص فمن
الغبث ان ننتظر منهم تصريحا بذلك او تتوقع ان يعلنوا عن الخطوط
الرئيسية لمنهاجهم ويبرروا بها موقفهم يوم السقيفة ومع هذا :

فلا بد من مبرر * *

ولا بد من تفسير * *

فقد ظهر في ذلك الموقف تسرعهم الى اتمام البيعة لأحدهم وتلفهم
على المقامات العليا تلهفا لم يكن منتظرا بالطبع من صحابة على نمطهم لأن
المفروض فيهم أنهم أناس من نوع اكمل وعقول لا تفكر الا في صالح
المبدأ ولا تعباً الا بالاحتفاظ له بالسيادة العليا * اما الملك الشخصي واما
اقتناص الكراسي فلا ينبغي ان يكون هو الغاية في حساب تلامذة محمد
(صلى الله عليه وآله وسلم) *

احسن الحاكمون بذلك وادركوا ان موقفهم كان شاذاً على أقل
تقدير فأرادوا (رضي الله عنهم) أن يرفعوا موقفهم بالأهداف السامية
والخوف على الاسلام من هبوب فتنة طاغية تجهز عليه ونسوا أن الرقعة
تفضح موضعها وان الخيوط المصححة في الثوب تشي بها *

ولذا دوت الزهراء بلكمتها الخالدة : —

زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطه بالكافرين

(١) وردت هذه القطعة في خطابها الثاني الذي القته على نساء المهاجرين
والانصار في بيتها *

نعم انها الفتنة ثم هي ام الفتن بلا ريب •
 ما اروعك يا بضعة النبي حين تكسفين الفناع عن الحقيقة المرة
 وتنبيين لأمة أليك بالمستقبل الرهيب الذي نلتع في افقه سحب حمراء؟
 ماذا اقول ؟ •• بل انهار من دم تزخر بالجماجم وهي تنعى على
 سلفها الصالح فعلهم وتقول : ألا انهم في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطه
 بالكافرين •

كانت العمليات السياسية يومئذ فتنة وكانت ام الفتن •
 كانت فتنة في رأي الزهراء — على الافل — لانها خروج على
 الحكومة الاسلامية السريعة القائمة في شخص علي هرون النبي (ص)
 والاولى من المسلمين بأنفسهم (١) •

ومن مهازل القدر أن يعتذر الفاروق عن موقفه بأنه خاف الفتنة وهو
 لا يعلم ان انتزاع الامر ممن اراده له رسول الله (ص) باعتراف عمر (٢)
 هو الصنة بعينها المسووعة لكل ما لهذا المفهوم من ألوان •

وأنا لا ادري ما منع هؤلاء الخائفين من الفتنة الدين لا مطمع لهم
 في السلطان الا بفقدار ما يتصل بصالح الاسلام ان يسألوا رسول الله
 صلى الله عليه وآله وسلم عن خلفته او يطلبوا منه ان يعين لهم المرجع

(١) بنص حديث الغدير الذي رواه «١١١» من الصحابة و (٨٤) من
 التابعين بإحسان و «٣٥٣» مؤلف من اخواننا السنة كما يظهر بمراجعة
 كتاب « الغدير » للعلامة الاميني • وأحب أن الالحظ هنا ان كثيرا من القرآن
 لم يروه من الصحابة عدد يبلغ مبلغ الرواة لحديث الغدير منهم فالتشكيك
 فيه ينتهي بالشك الى التشكيك في القرآن الكريم •
 وأما دلالة الحديث على خلافة علي وامامته فهي أيضا ترتفع عن
 التشكيك لوضوحها وبدايتها وتعدد القرائن عليها ولتراجع في ذلك
 « مراجعات » سيدنا سادن المذهب وحامي التشيع في دنيا الاسلام آية الله
 ال بيد عبد الحسين شرف الدين دام ظله العالي •
 (٢) راجع ج ٣ شرح النهج ص ١١٤ و ١١٥ •

الاعلى للحكومة الاسلامية من بعده وقد طال المرض به اياما متعددة واعلن فيها مرارا عن قرب أجله واجتمع به جماعة من اصحابه فسألوه عن كيفية غسله وتفصيلات تجهيزه ^(١) ولم يقع في أنفسهم مطلقا ان يسألوه عن المسألة الاساسية بل لم يخطر في بال اولئك الذين أصروا على عمر بأن يستخلف ولا يهمل الامة والحواء عليه في ذلك خوفا من الفتنة ^(٢) أن يطلبوا نظير هذا من رسول الله (ص) فهل ترى انهم كانوا حينذاك في غفلة عن اخطار الموقف بالرغم من انذار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفتن كقطع الليل المظلم حتى اذا لحق سيد البشر بالرفيق الأعلى توهجت مشاعرهم بالغيرة على الدين وملأ قلوبهم الخوف من الفتنة والانعكاسات السيئة او تعتقد معي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد اختار للسفينة ربانها الأفضل ولذلك لم يسأله السائلون •

دع عنك هذا واختلق لهم ما شئت من المعاذير فان هؤلاء الغياري على الاسلام لم يكتفوا بترك السؤال بل منعوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من مقاومة الخطر المرتقب حينما أراد أن يكتب كتابا لا يضل المسلمون بعده أبدا • والفتنة ضلال واذن فلا فتنة بعد ذلك الكتاب ابدا فهل كانوا يشكون في صدق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) او يرون انهم افدر على الاحتياط للاسلام والقضاء على الشغب والهرج من نبي الاسلام ورجله الاول •

وخليق بنا ان نسأل عما عناه النبي (ص) بالفتن التي جاء ذكرها في مناجاته. لقبور البقيع في أخريات أيامه اذ يقول : لهنكم ما أصبحتم فيه قد اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ^(٣) •

(١) راجع تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ١٢٢ •

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١٧ •

(٣) راجع تاريخ الكامل ج ٢ ص ٢٢٢ •

ولعلك نقول : انها فتن المرتدين وهذا تفسير يقبل على فرض واحد وهو : ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتخوف على موتى البقيع من الارتداد فاما اذا لم يكن يخشى عليهم من ذلك كما — هو في الواقع — لأنهم على الاكثر من المسلمين الصالحين وفيهم الشهداء فلماذا يهتفهم على عدم حضور تلك الأيام ولا يستقيم في منطق صحيح أن يريد بهذه الفتن المشاغبات الأموية التي قام بها عثمان ومعاوية بعد عقود ثلاثة من ذلك التاريخ تقريبا •

واذن فتلك الفتن التي عنها النبي (ص) لا بد أن تكون فتنًا حادثة بعده مباشرة ولا بد أيضا أن تكون أكثر اتصالا بموتى البقيع لو قدرت لهم الحياة من فتن الردة والمنتبئين •

وهي اذن عين الفتنة التي عنتها الزهراء بقولها : ألا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطه بالكافرين •

وهل من غضاضة بعد أن يصطليح عليها رسول الله (ص) بالفتنة ان تمنح لقب الفتنة الأولى في دنيا الاسلام •

وقد كانت العمليات السياسية يومئذ فتنة من ناحية أخرى لأنها فرضت خلافة على أمة لم يقتنع بها الا القليل من سوقتها الذين ليس مثلهم الحق في تقرير مصير الحكم في عرف الاسلام ولا في لغة القوانين الدستورية جميعا •

تلك هي خلافة الصديق (رضي الله تعالى عنه) عندما خرج من السقيفة «وعمر يهرول بين يديه وقد نبر حتى ازبد شدقا» وجماعته تحوطه « وهم متزرون بالأزر الصناعية لا يمرون باحد الا خبطوه وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد ابي بكر يبايعه شاء ذلك أو أبى (١) »

(١) راجع شرح النهج ج ١ ص ٧٤ •

ومعنى هذا ان الحاكمين زفوا الى المسلمين خلافة لم تباركها السماء ولا رضي بها المسلمون وان الصديق لم يستمد سلطانه من نص نبوي - بالضرورة - ولم ينعقد الاجماع عليه ما دام سعد لم يبايع الى أن مات الخليفة وما دام الهاشميون لم يبايعوا الى ستة اشهر من خلافته - كما في صحيح البخاري •

قالوا : ان اهل الحل والعقد قد بايعوه وكفى •

ولكن ألا يحتاج هذا المفهوم الى توضيح والى مرجع يرجع اليه في ذلك ؟ فمن هو الذي اعتبر مبايعي ابي بكر اهل الحل والعقد واعطاهم هذه الصلاحيات الواسعة ؟ •

ليس هو الأمة ولا النبي الأعظم ، لأننا نعلم أن أبطال السقيفة لم يأخذوا أنفسهم بمناهج الانتخاب غير المباشر ولم يستفتوا المسلمين في تعيين المنتخبين الثانويين الذين اصطلح عليهم في العرف القديم بأهل الحل والعقد •

كما انه لم يؤثر عن رسول الله (ص) اعطاء هذه الصلاحيات لجماعة مخصوصة فكيف تمنح لعدد من المسلمين ويستأمنون على مقدرات الأمة بغير رضى منها في ظل نظام دستوري كنظام الحكم في الاسلام كما يزعمون •

ومن العجيب في العرف السياسي ان تعين الحكومة نفسها اهل الحل والعقد ثم تكتسب منهم كلمتها العليا •

واعجب من ذلك اخراج علي والعباس وسائر بني هاشم وسعد بن عباد والزبير وعمار وسمان وأبي ذر والمقداد وجميع اهل الحجة والرأي

— على حد التعبير ابن العباس لعمر — (١) من اهل الحل والعقد اذا صح ان في الاسلام طبقة مستأثرة بالحل والعقد •

وقد جر وضع هذه الكلمة في قاموس الحياة الاسلامية الى تهية الجو لارستقراطية هي أبعد ما تكون عن روح الاسلام وواقعه المصفى من الطبقة والعننات •

وهل كانت تلك الثروات الضخمة التي امتلأت بها اكياس عبيد الرحمن بن عوف وطلحة واضرابطها الا بسبب هذا اللقب المشؤوم على الاسلام الذي لقبوا به فأوا انهم من الطراز الرفيع الذي يستحق أن يملك الملايين ويتحكم في حقوق الناس كما يريد •

وقالوا : ان الاكثرية هي مقياس الحكومة الشرعية والمبدأ الذي لا بد أن تقوم على اساسه الخلافة •

وقد استهان القرآن الكريم بالاكثرية ولم يجعل منها في حال من الاحوال دليلا وميزانا صحيحا اذ جاء فيه :

(ان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله) •

(وأكثرهم للحق كارهون) •

(وما يتبع أكثرهم الا ظنا) •

(ولكن أكثرهم يجهلون) •

وقد روي عن رسول الله (ص) في صحاح السنة أنه قال : بينا أنا قائم (يعني يوم القيامة على الحوض) فاذا زمرة حتى اذا عرفتهم خرج

(١) اذ قال له : اما اهل الحجب والنهي فانهم ما زالوا يعدونه — أي عليا — كاملا منذ رفع الله منار الاسلام ولكنهم يعدونه محروما مجدودا راجع شرح النهج ج ٣ ص ١١٥ •

رحل من بيني وبينهم فقال : هلم ، فقلت أين ؟ فقال : الى النار والله ، قلت : وما شأنهم ؟ قال انهم ارتدوا بعدك على ادبارهم القهقري - الى ان قال - : فلا اراه يخلص منهم الا مثل همل النعم .

ولا يمكن أن تكون هذه الاكثرية الجهنمية التي حدث عنها رسول الله (ص) مصدر السلطة في الاسلام لأنها لا تنشئ بطبيعة الحال الا خلافة مطبوعة بطابعها .

واذا خرجنا بالأكثرية عن حدود المدنيين الذين عرفنا آنفا مراكزهم الجهنمية على الاغلب في الحياة الخالدة واعتبرنا اكثرية المسلمين عموما هي المقياس الصحيح فلا بد ان نلاحظ ان المدينة هل كانت وحدها مسكن المسلمين ليكتمل النصاب المفروض بالاكثرية المدنية او ان ابا بكر لم يكتف بها وانما بعث الى المسلمين المنتشرين في أرجاء المملكة بالخبر ليأخذ آراءهم ويستشيرهم ؟ كلا لم يحدث شيء من ذلك وانما فرض حكومته على آفاق المملكة كلها فرضا لا يقبل مراجعة ولا جدالا حتى أصبح التردد في الخضوع لها جريمة لا تغتفر .

وقالوا : ان الخلافة تحصل ببيعة بعض المسلمين ولا ريب ان ذلك قد حصل لأبي بكر .

ولكن هذا مما لا يفهمه المنطق السياسي السليم لأن البعض لا يمكن ان يتحكم في شؤون الامة كلها ولأن حياة الامة لا يمكن ان تعلق على خيط ضعيف كهذا الخط وبركن في حفظ مقدساتها ومقامها الى حكومة أنشأها جماعة من الصحابة لم يزكهم اجماع شعبي ولا نص مقدس بل هم اناس عاديون من الصحابة . ونحن نعلم ان (منهم) الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن . ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما

وعنده وبما كانوا يكذبون •) ومنهم من خص الله تعالى نفسه بالاطلاع على سرائرهم وتفاقمهم فقال لرسوله : (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) •

فجماعة فيها المنافق وفيها من يؤذي رسول الله وفيها الكاذب لا يمكن أن يعتبر رأي بعضهم أيا كان ملاكا للمنصب الأول في العالم الاسلامي •

وتعليقا على هذه المعلومات نقول : ان خلافة الصديق لم تكن خلافة نص ولا خلافة اكرية ولا نتيجة انتخاب مباشر ولا غير مباشر ، نعم بذل في سبيلها بعض المسلمين جهودا رائعة والتفت حولها طائفة من الناس وانتصرت لها جماعات عديدة في المدينة ولكن هؤلاء جميعا ليسوا الا بعض المسلمين والبعض ليس له حكم مطاع في الموضوع لأن الحكم الذي يستمد معنويته القانونية من الامة يلزم ان يكون صاحبه ممثلا للامة بجميع عناصرها او اكثر عناصرها هذا اولا واما ثانيا فلأن في المسلمين منافقين لا يعلمهم الا الله بنص القرآن الكريم وتنزيه هذا البعض المتوفر على انشاء الكيان السياسي للامة حينئذ عن النفاق لا بد أن يكون عن طريق النص أو الامة •

واذن فليسبح لنا الصديق أن نميل الى رأي الزهراء بعض الميل او كل الميل ، لأننا لا نجد للفتنة واقعا اوضح من تسلط رجل بلا وجه قانوني على أمة وتصرفه في مرافقها الحيوية جميعا كالصديق (رض) في أيام خلافته أو في الأشهر الأولى أو في الاسابيع الاولى من حكومته التي خطبت فيها الزهراء — على اقل تقدير — •

وما ادري هل خطرت للمتسرعين المستبدين نتائج استبدادهم واستقلالهم عن العناصر التي كان من الطبيعي ان يكون لها رأي فسي

الموضوع لو قامت تلك العناصر بالمعارضة واستعد الهاشميون للمقاومة وقد كان تقدير هذ المعنى قريبا ومعقولا الى حد بعيد فكيف لم يحتاطوا له و انتهوا الى تتيجتهم المطلوبة في مدة قد لا تزيد على ساعة .

ولماذا نقدر الموقف اكثر مما قدسه ابطاله فقد بلغ من تقديس الفاروق انه أمر بقتل من عاد الى مثل بيعة ابي بكر وكرر ذلك الموقف .
واذا اردنا ان نأخذ هذا الكلام ونفهمه على انه كلام امام يراعي دستور الاسلام ، فمعنى ذلك انه رأى موقف ابي بكر واصحابه في السقيفة فتنة وفسادا لأن القتل لا يجوز بغير ذلك من الاسباب .

وهي بعد ذلك كله أم الفتن لانها هي التي جعلت الخلافة سلطان الله الذي يأتيه البر والفاجر كما صرحت بذلك السيدة عائشة (رض) التي كانت بلا شك تمثل نظريات الحزب الحاكم (١) .

وهي التي فتحت للاهواء والاطماع السياسية ميدانها الواسع فتولدت الأحزاب وتناحرت السياسات وتفرق المسلمون وانقسموا شر انقسام ذهب بكيانهم الجبار ومجدهم في التاريخ .

وماذا ظنك بهذه الامة التي أنشأت في ربع قرن المملكة الاولى في ارجاء العالم بسبب ان زعيم المعارضة للحكومة في ذلك الحين اعني عليا - لم يتخذ للمعارضة اسبابها المزعومة لكيان الامة ووحدتها .

(أقول) : ماذا تقدر لها من مجد وسلطان وهيمنة على العالم لو لم تبطل بعشاق الملك المتضارين والامراء السكارى بنشوة السلطان ولم تكن مسرحا للمعارك الدامية التي يقل نظيرها في التاريخ ولم يستغل

(١) راجع الدر المنثور ج ٦ ص ١٩ .

حكاهما الغاشمون امكانيات الامة كلها للدائهم وهنائهم ويستهيون بعد
ذلك بمقدراتها جميعا •

لم ينظر الصديق والفاروق الا الى زمانهما الخاص فتصورا ان في
طاقتهما حماية الكيان الاسلامي ولكنهما لو تعمقا في نظرتهما كما تعمقت
الزهراء وتوسعا في مطالعة الموقف لعرفا صدق الانذار الذي اندرتهما
به الزهراء •



- ٥ -

حكمة الكتاب

ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات
الى أهلها واذا حكمتهم بين الناس
ان تحكموا بالعدل ان الله نعماء يعظكم
به ان الله كان سميعا بصيرا •

(القرآن الكريم)

معركة الكتاب

إذا اردنا ان نرتفع بمستوى دراستنا الى مصاف الدراسات الدقيقة فلا بد أن نأخذ انفسنا بمنهج البحث العلمي في درس ناحيتين :

الناحية الاولى : موقف الخليفة تجاه ميراث الزهراء الذي كان يستند فيه الى ما رواه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في موضوع الميراث بأساليب متعددة وصور مختلفة لتعدد مواجهات الخصمين فجاءت الأحاديث التي تنقل روايته وهي لا تتفق على حد تعبير واحد ولا تجمع على لفظ معين لاختلاف المشاهد التي تروىها واختصاص كل منها بصيغة خاصة للحديث على حسب ما كان يحضر الخليفة من عبائس او تعدد الروايات التي رواها في المسألة .

١ - وقبل كل شيء نريد أن نلاحظ مقدار تأكيد الخليفة من صحة الحديث الذي رآه دالا على نفي توريث التركة النبوية واطمئنانه الى سماع ذلك من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وثباته عليه ويمكننا فهم ذلك مما تحدثنا به الروايات ^(١) من أن الخليفة سلم فدكا للحوراء وكاد الامر ان يتم لولا ان دخل عمر وقال له : ما هذا ؟ فقال له : كتاب كتبت لفاطمة بمراثيها من ابها . فقال . مماذا تنفق على المسلمين وقد حاربك العرب كما ترى ثم أخذ الكتاب فسمه : ونحن ننقل هذه الرواية

(١) ذكره سبط ابن الجوزي كما في السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٩١ .

في تحفظ وان كنا نستقرب صحتها لأن كل شيء كان يشجع على عدم حكاية هذه القصة لو لم يكن لها نصيب من الواقع . وإذا صحت فهي تدل على ان امر التسليم وقع بعد الخطبة الفاطمية الخالدة ونقل الخليفة لحدب نفي الارث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن حروب الردة التي اشار اليها عمر في كلامه ابدأت بعد يوم السقيفة بعشرة أيام^(١) خطبة الزهراء قد كانت في اليوم العاشر أيضا كما سبق^(٢) .

٢ - وقد اظهر الحليفة الندم في ساعة وفاته على عدم تسليم فذك لفاطمة^(٣) وقد بلغ به التأثر حينما ان قال للناس وقد اجتمعوا حوله اقبلوني بيعتي ، ويدرك من هذا ان الخليفة كان يطوي نفسه على قلق عظيم مرده الى الشعور بنقص مادي في حكمه على فاطمة وضعف في المدرك الذي استند اليه ويشور به ضيره احيانا فلا يجد في مستنداته ما يهدى نفسه المضطربة وقد ضاق بهذه الحالة المريرة فطفحت نفسه في الساعة الاخيرة بكلام يندم فيه على موقعه من الزهراء تلك الساعة الحرجة التي يمثّل فيها للاسنان ما مثله على مسرح الحياة من فصول او شك السمار ان يسدل عليها ونجتمع في ذاكرته خيوط حياته بألوانها المختلفة المي آن لها ان تنقطع فلا يبقى منها الا النبعات .

٣ - ولا ننسى ان ابا بكر اوصى أن يدفن الى جوار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يصح ذلك الا اذا كان قد عدل عن اعتبار روايته مدركا قانونا في الموضوع واستأذن ابنته في أن يدفن فيما ورثته

(١) راجع مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٣ .
 (٢) ولعل هذا يضعف من شأن الرواية لان الخليفة لو كان مستعدا للتراجع لاجاب الزهراء الى ما تطلب في المسجد حينما خطبت واسمعتة من التائب والتفريع الشيء الكثير .
 (٣) رواه الطبري كما في ص ١٨ من سمو المعنى في سمو الذات للاستاذ الكبير الشيخ عبد الله العللائي .

من ارض الحجرة - اذا كان للزوجة نصيب في الارض وكان نصيب عائشة يسع ذلك - ولو كان يرى ان تركه النبي (ص) صدقة مشتركة بين المسلمين عامة للزومه الاستئذان منهم ، وهب ان البالغين احازوا ذلك فكيف بالاطفال والقاصرين ممن كانوا في ذلك الحين .

٤ - ونحن نعلم ايضا ان الخليفة لم يتزع من نساء النبي بيوتهم ومساكنهم النبي كن سكن فيها في حياه رسول الله (ص) فما عساه ان يكون سبب التفريق الذي انج انتزاع فدك من الزهراء وبحصص حاصلاتها للمصالح العامة وابقاء بيوت نساء النبي (ص) لهن يصرفن فيها كما يتصرف المالك في ماله ؟ حتى نستأذن عائشة في الدفن في حجرةها أكان الحكم بعدم التوريث محتضا ببضعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو أن بيوت الزوجات كانت نحلة لهن فلما ان نسفهم عما اثبت ذلك عند الخليفة ولم يعم بيته عليه ولا ادعته واحدة منهم وليسست حيازتهن للبيوت في زمان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شاهدا على ملكتهن لها لانها ليست حيازة اسفلا بل من شؤون حيازة النبي (ص) ككل زوجة بالنسبة الى زوجها . كما ان سبه البيوت المهن في الآية الكريمة - وفرن في بيوتكن - لا يدل على ذلك لأن الاضافه يكفي في صحتها ادنى ملاسة وقد نسب الى النبي (ص) في القرآن الكريم بعد تلك الآية بمقدار قليل اذ قال الله تبارك وتعالى : يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم فاذا كان الترتيب القرآني حجة لزم الاخذ بما يدل على هذه الآية وورد في صحاح السنة عن رسول الله (ص) اسناد البس اليه في قوله : ان ما بين بيتي ومبري روضة من رياض الجنة .

٥ - ولنتساءل عما اذا كان الحكم بعدم توريث الانبياء الذي ذهب اليه الحنفية مما اخزنه الوحي لخاتم المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم) واقتضت المصلحة تأخيرها عن وقت الحاجة واجراءه على الصديقة دون سائر ورثة الأنبياء او ان الرسل السابقين قد اهلوا ببلغه وعرف

خلفائهم وورثتهم به طمعا بالمادة الزائفة واستبقاء لها في اولادهم وآلهم
او انهم كانوا قد انتهجوا هذا الطريق ونفذوا الحكم بعدم النورب ومع
ذلك لم يؤثر في النواربخ جميعا او ان السباسة السائدة يومذاك هي
التي أنشأت هذا الحكم ؟

٦ - ومن جهة اخرى هل يمكننا ان نقبل ان رسول الله (ص) يحرم
على احب الناس اليه وأقربهم منه البلايا والندائد وهي التي يغضب
لغضبها وبسر لسرورها وينقبض لانقباضها ^(١) ولم يكن لسكلكه دفع هذه
المحن عنها أكثر من اعلامها بحقيقة الامر لئلا نطلب ما لبس لها بحق
وكان رسول الله (ص) لذلك ان ترزى ابنته ثم نسع هذه الرزية فتكون
اداة اخلاف وصخب بين المسلمين عامة وهو الذي أرسل رحمة للعالمين
فبقي مصرا على كتمان الخبر عنها مع الاسرار به الى أبي بكر .

* * *

١ - لأجل ان نلقي نظرة على الحديث من الناحة المعنوية بعد
الملاحظات التي أسلفناها تقسم الصيغة التي جاءت في رواية الموضوع الى
قسمين : -

(الاول) ما جاء في بعضها من ان أبا بكر نكح لما كلمه فاطمة نسمة
قال يا بنت رسول الله والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما وانه قال :
ان الانبياء لا يورثون وما ورد في حديث الخطبة من قوله . اني سمعت
رسول الله (ص) يقول : انا معاشر الانبياء لا نورب دهب ولا فضة ولا
ارضا ولا عفارا ولا دارا لكننا نورث الايمان والحكمة والعلم والسنة .

(الثاني) التعبير الذي تنطه عدده اخبار عن الخلفة وهو ما رواه عن
رسول الله (ص) من انا لا نورث ما تركناه صدقة .

(١) هذه صيغ احاديث متعددة وردت في الصحاح عن النبي .

٢ - والنقطة المهمة في هذا البحث هي معرفة ما اذا كانت هذه الصيغ تدل بوضوح لا يقبل تشكيكا ولا تأويلا - وهو النص في العرف العلمي - على أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يورث بركته او ما اذا كان نصالح للعبير بها عن معنى آخر وان كان للعبير بها عن الحكم بعدم التوريت اصلح - وهو الظاهر في الاصطلاح - والمسألة تقدير ثالث وهو ان لا يرجح المعنى الذي هو في صالح الخليفة على ما قد يؤدي باللفظ من معانٍ اخر - وهو المجمل - .

٣ - اذا لاحظنا القسم الاول من صيغ الحديد وجدنا رواياته تقبل ان تكون باننا لعدم شريع يورث الانبياء كما فهمه الخليفة ويمكن ان تكون كناية عن معنى لا يبعد ان يقع في نفس رسول الله (ص) بيانه وهو تعظيم مقام النبوة وتجليل الانبياء . وليس من مظهر للجلالة الروحية والعظمة الالهية اجلى دلالة وأكثر مادية من الزهد في الدنيا ولذا نذهب الزائفة ومعها الفاتنة فلماذا لا يجوز لنا اقتراض ان النبي (ص) اراد ان يشير الى ان الانبياء أناس ملائكون وبشر من الطراز الاسمي الذي لا شوبه الا انانان الارضه والاهواء البشرية لأن غلبتهم فسد اشتقت من عناصر السماء - بمعناها الرمزي - المتدفقة بالخر لا من مواد هذا العالم الارضي فهم ابدا ودائما منابع الحبر والطالعون بالنور والمورثون للايمان والحكمة والمركزون للسلطان الالهي في الارض ولسوا مصادر للثروة بمعناها المصطلح عليه في عرف الناس ولا بالساعين وراء نفائسها ولماذا لا يكون قوله : انا معاشر الانبياء لا نورت ذهبها ولا فضة ولا ارضا ولا عفاروا ولا دارا كناية عن هذا المعنى لأن يورثهم لهذه الاشياء اما تكون بحيازتهم لها وتركهم اياها بعد موتهم وهم مصرفون عنها لا بحسبون لها حسابا ولا يقيمون لها وزنا ليحصلوا على شيء منها فما هو تحب اللفظ نفى التورث لعدم وجود التركة كما اذا قلنا : ان الفقراء لا يورثون لا اهم يختصون عن سائر الناس بحكم قضائي

بعدم جريان احكام الارث على تركاتهم • والهدف الاصلي من الكلام بيان جلال الانبياء • وهذا الاسلوب من البيان مما يتفق مع الاساليب النبوية الرائعة التي نطفح بالمعاني الكبار وتزخر بأسمائها في موجاتها اللفظية القصيرة •

٤ - ولكي تتفق معي على تفسير معين للحديث يلزم ان نعرف معنى التوريث لنفهم الجملة النافذة له كما يلزم • ومعنى التوريث جعل شيء مبراثا فالمورث من يكون سببا لانتقال المال من الميث الى قريبه • وهذا الانتقال ينوقف على امرين : -
(أحدهما) وجود التركة •

(والآخر) القانون الذي يجعل للوارث حصة من مال الميت وبحصل الاول بسبب نفس الميت والناهي بسبب المشرع الذي وضع قانون الوراثة سواء أكان فردا اسندت اليه الناس الصلاحيات التشريعية او هيئه تقوم على ذلك او نسا بشرع نوحى من السماء فكل من الميت والمشرع له نصيب من ايجاد التوارث ولكن المورث الحقيقي الذي بسنحق التعبير عنه بهذا اللفظ بحق هو الميث الذي اوجد ماله الارث لانه هو الذي هيا للارث شرطه الاخير بما خلفه من ثروته واما المشرع فليس مورثا من ذلك الطراز لانه لم يجعل بوصفه للقانون ميراثا معينا بالفعل بل شرع نظاما يفرضي بأن الميت اذا كان قد ملك شيئا وحلته بعد موته فهو لأقاربه وهذا وحده لا يكفي لاجاد مال موروث في الخارج بل ينوقف على ان يكون الميت قد اصاب شيئا من المال وخلفه بعده •

فالواضع التشريعي نظر من بصيف عنصر خاصا الى طبيعة من الطبائع فبجعلها قابلة لا حراق ما يلافيها فاذا اميت المها بورفه فاحزوف كتب انب الذي احرفها لا من اضاف ذلك العنصر المحرق الى الطبيعة والقاعدة التي تعلل ذلك ان كل شيء يسند بحسب اصول التعبير الى

المؤثر الاخير فيه وعلى ضوء هذه القاعدة نعريف ان نسبة التوريث الى شخص تدل على انه المؤثر الاخير في الارث وهو الموروث الذي اوجد التركة فالمفهوم من جملة ان الانبياء يورثون انهم يحصلون على الاموال ويجعلونها تركة من بعدهم واذا نفي التوريث عنهم كان مدلول هذا النفي انهم لا يهيئون للارث شرطه الاخير ولا يسمون وراء الاموال ليتروكوها بعد وفاتهم لورثتهم ، واذن فليس معنى ان الانبياء لا يورثون عدم التوريث التشريعي ونفي الحكم بالارث لأن الحكم بالارث ليس توريثا حقيقيا بل التوريث الحقيقي تهيئة نفس التركة وهذا هو المنفي في الحديث •

وعلى طراز آخر من الببان ان التوريث الذي نفاه خام النبي عن الانبياء ان كان هو التوريث التشريعي كان مفاد النفي الغاء قانون الارث من شرائع السماء ، لان توريثهم التشريعي لا يختص بورثتهم حتى يكون المنفي توريثهم خاصة وان كان هو التوريث الحقيقي بمعنى تهيئة الجو المناسب للارث سقطت العبارة عما اراد لها الصديق من معنى وكان معناها ان الانبياء لا تركة لهم لتورث •

٥ - وفي الرواية الاولى مهد الخليفة للحديث بقوله : والله ما ورث ابوك دبنارا ولا درهما وهذا التعبير واضح كل الوضوح في نفي التركة وعدم ترك رسول الله (ص) شيئا من المال فاذا صح للخليفة ان يستعمل تلك الجملة في هذا المعنى فليصح ان تدل صيغة الحديث عليه ايضا ويكون هو المقصود منها •

٦ - واذا لاحظنا الامثلة التي ذكرت في الرواية الثانية نجد فيها ما يعزز قبة هذا التفسير لان ذكر الذهب والفضة والعقار والدار - مع انها من مهمات التركة - لا يتفق مع تفسير الحديث بأن التركة لا تورث

لان اللازم ذكراته الاشياء لبيان عموم الحكم بعدم الارث لسائر مصاديق التركة كما انا اذا اردنا ان نوضح عدم ارث الكافر لشيء من تركه ابيه لم نقل : ان الكافر لا يرث ذهابا ولا فضا ولا دارا وانما نقول : انه لا يرث ثمرة واحدة من تركه الميت وتعبير واضح ان الاهتمام بتوضيح عموم الحكم لكل اقسام التركة يقتضي التصريح ببعض اقسام المال الذي قد يتوهم متوهم بعدم اندراجه في التركة التي لا تورث وقولنا : الانبياء لا يورثون او ان الكفار لا يصيب لهم من تركه آبائهم يدل اول ما يدل على عدم انتقال الدار والعقار والذهب والفضة وغيرها من نفيس الركة ومهمها فذكر هذه الامور في الحديث يرجح ان المفصود بنفي توريث الانبياء بيان زهدهم وعدم اهتمامهم بالحصول على نفائس الحياة المحدودة التي يتنافس فيها المتنافسون لأن المناسب لهذا الغرض ذكر الاموال المهمة التي تكون حيازتها ووريثها منافيا للزهد والمقامات الروحية العليا . واما الاخبار عن عدم التوريث في الشريعة فاللائق به ذكر التولفه من الركة دون اقسامها الواضحة المهمة .

٧ - وأمر آخر يشهد لما ذكرناه من التفسير وهو الجملة الثانية الايجابية في الحديث أي جملة . ولكننا نورت الايمان والحكمة والعلم والسنة فانها لا تدل على تشريع وراثه هذه الامور بل على توفرها في الانبياء الى حد يؤهلهم لنشرها واشاعتها بين الناس فقد تفهم حينئذ ان المراد بالجملة الاولى التي نفت التوريث بيان ان الانبياء لا يسعون للحصول على الذهب والعقار ونحوهما ولا يكون لهم من ذلك شيء ليرثه آلهم .

٨ - ولا يجوز لنا ان نقيس عبارة الحديث المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : ان الناس لا يورثون الكافر من اقاربهم ، بل يلزمنا ان نفرق بين التعبيرين لأن المشرع اذا تكلم عن يشرع لهم

احكامهم كان الظاهر من كلامه انه يلقي بذلك عليهم حكما من الاحكام فاخبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن عدم توريث الناس للكافر من اقاربهم لا يصح تفسيره بأنه اخبار فقط بل يدل فوق هذا على ان الكافر لا يرث في شريعته وتختلف عن ذلك العبارة التي نقلها الخليفة لأن موضوع الحديث فيها هو الانبياء لا جماعة ممن تشملهم تشريعات النبي (ص) واحكامه فليس في الامر ما يدل على حكم وراء الاخبار عن عدم توريثهم *

٩ - وليس لك ان تعرض بأن الانبياء كثيرا ما يحوزون على شيء مما ذكر في الحديث فيلزم على ما ذكرت من التفسير ان يكون الحذب كاذبا لأنك قد تذكر ان الذي نفي عن الانبياء هو التوريث خاصه وهو بنطوي على معنى خاص وأعني به اسناد الارت الى المورث وهذا الاسناد يوقف على ان يكون المورث قد سعى في سبيل الحصول على المال الذي تركه ميراثا بعده كما ينوقف معنى المهدب على استعمال وسائل التهذيب فاذا استطاع شخص ان يقرأ أفكار عالم من علماء الاخلاق ويهدب نفسه على هدى تلك الافكار لم يصح سمية ذلك العالم مهدبا لأن ايجاد أي شيء سواء أكان تهديبا او توريثا او تعليما او نحو ذلك لا يستقيم اسناده الى شخص الا اذا كان للشخص عمل ايجابي وتأثير ملحوظ في تحقق ذلك الشيء الموجود والانبياء وان حازوا شئنا من العقارات والدور ولكن ذلك لم يكن بسعي منهم وراء المال كما هو شأن الناس حبيبا * وهرر علاوة على هذا ان المقصود من الكلام ليس هو بان ان الانبياء لا يورثون ولا يتركون مالا بل ما يدل عليه ذلك من مقامهم وامنازهم وما دامت الجملة كذلك ولم تكن الهدف الجمعي منها بان معاهها الحرفي فلا يمنع حازه الانبياء لبعض تلك الاموال عن صواب التفسير الذي قدمناه كما ان من كسى قدما عن الكريم بأنه كثر الرماد لم يكن كاذبا سواء أكان في بيت الكريم رماد او لا لانه لم يرد

نعمه بهذا الوصف حقا وانما اشار به الى كرمه لأن أظهر لوازم الكرم يومذاك كثرة المطابخ الموجبة لكثرة الرماد وعدم التورث من اوضح آثار الزهد والورع فيجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد اشار الى ورع الانبياء بقوله : ان الانبياء لا يورثون .

١٠ - ولأجل ان نتبين معنى القسم الثاني من صيغ الحديث يلزمنا ان نمبر بين معان ثلاثة - :

الأول : ان تركة الميت لا تورث ومعنى هذا ان ما كان يملكه الى حين وفاته وتركه بعده لا ينتقل الى آله بل يصبح صدقة حين موته .

الثاني : ان ما تصدق به الميت في حياته او اوقفه على جهات معينة لا تورث بل يبقى صدقة ووقفا والورثة انما يرثون غير الصدقات من الاموال التي كان يملكها الميت الى حين وفاته .

الثالث : ان الشخص ليس لديه أموال مملوكة له لتورث وكل ما سوف يتركه من اموال انما هو من الصدقات والاوقاف .

ومضى عرفنا الفارق بين هذه المعاني يظهر ان صفة الحديب ليست واصحة لكل الوضوح ولا غية عن البحث والتحصى بل في طاقتها التعبيرية امكانيات التفسير بالمعاني الالفة الذكر جميعا فان النصف الثاني من الحديب وهو - ما تركناه صدقة - يجوز ان نكون مستغلا في كبرانه المعنوي مركبا من مبتدأ وخبر يمكن ان يكون نكملة لجمله لا نورث ففي الحال الاولى بهل الحديب التفسير بالمعنى الاول والثالث من المعاني السابقة لأن جملة - ما تركناه صدقة - قد يراد بها ان التركة لا تنتقل من ملك الميت الى آله وانما تصبح صدقة بعد موته وقد يقصد بها بيان المعنى الثالث وهو ان جميع التركة صدقة ولم يكن يملك منها الميت شيئا لبورث كما اذا اشار الانسان الى امواله وقال : ان هذه الاموال

ليست ملكا لي وانما هي صدقات انولها والحديث على تقدير ان تكون له وحدة معنوية يدل على المعنى الثاني اي ان الصدقات التي تصدق بها الميت في حياته لا تورث دون سائر تركته ويكون الموصول مفعولا لامبداً ويتضح من الصيغة على هذا التقدير نفس ما يفهم مما اذا انعكس الترتيب فيها وجاءت هكذا : ب - ما تركناه صدقة لا نورثه - فكما يؤنى بهذه الجملة لبيان ان الصدقات لا نورث لا أن كل أقسام التركة صدقة كذلك يصح أن يقصد نفس ذلك المعنى من صيغة الحذب بربيتها المأثور . فتكون دليلا على عدم انفال الصدقات الى الورثة لا على عدم سريع الارب اطلافا وقد يكون من حق سبيويه علينا ان نسير الى ان فواعد النحو ترفع كلمة صدقة على تقدير استقلال - ما تركناه صدقة - معنويا ونصبها على التقدير الآخر . ومن الواضح ان الحركات الاعرابية لا نلحظ في التكلم عادة بالسبب الى الحرف الاخير من حروف الجملة للوقوف عليه المجوز لنسكبه .

١١ - واذا فقد وضعنا بين يدي الحديث عدة من المعاني في سبيل البحث عن مدلوله وليس من الاسراف في القول ان تقرر ان تفسير الحذب بما يدل على ان اموال النبي (ص) تكون صدقة بعد موته لا يرجح على المعنيين الآخرين بل قد نبين لونا من الرجحان للمعنى الثاني - وهو ان المنزلة صدقة لا تورث - دون سائر التركة اذا تأملنا ضمير الجمع في الحديث وهو النون وهضمنا دلالة كما يجب لأن استعماله في شخصه الكريم خاصة لا يصح الا على سبيل المجاز ثم هو بعد ذلك بعيد كل البعد عن تواضع رسول الله (ص) في قوله وفعله فالظواهر تجمع على أن النون قد استعملت في جماعة وان الحكم الذي يفره العبارة ثابت لها وليس محتضا بالبي (ص) والافق باصول التعبير ان تكون الجماعة جماعة المسلمين لا الانبياء لأن الحديث مجرد عن قرينة تعين هؤلاء ولم يسبق بعهد يدل عليهم وليس لك ان تعرض بأن صفة الحديث بجوز انها كانت مقربة

حال صدورها من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقرينة او مسبوقه بعهد يدل على ان مراده من الضمير جماعة الانبياء لان اللازم ان نعتبر عدم ذكر الخليفة لشيء من ذلك - مع ان الراوي لحديث لا بد له من نقل سائر ما يتصل به مما يصلح لتفسيره - دليلا على سقوط هذا الاعتراض . واضف الى هذا ان اغفال ذلك لم يكن من صالحه واذن فليكن الواقع اللفظي للحديث هو الواقع المأثور عن الخليفة بحدوده الخاصة بلا زيادة ولا نقص .

والمفهوم من الضمير حينئذ جماعة المسلمين لحضورهم ذاتا عند صدور العبارة من النبي (ص) وقد جرت عادة المتكلمين على انهم اذا أوردوا جملة في مجتمع من الناس وادرجوا فيها ضمير المتكلم الموضوع للجماعة أن يريدوا بالضمير الجماعة الحاضرة فلو ان شخصا من العلماء اجتمع عنده جماعة من أصدفائه وأخذ يحدثهم وهو يعبر بضمير المتكلم الموضوع للجمع بلا سبق ذكر العلماء لفهم من الضمير ان المتكلم يعني بالجماعة نفسه مع أصدفائه الحاضرين لا معشر العلماء الذين سدرج فيهم ولو أراد جماعه غير اولئك الحاضرين لم يكن ميّنا بل ملعزا . وعلبة على هذا القدير ماذا نراه يكون هذا الحكم الذي انتّه الحديث للمسلمين - الذين قد عرفنا ان الضمير يدل عليهم - هل يجوز أن يكون عبارة عن عدم نوريب المسلم لتركته ؟ او ان الاموال التي عند كل مسلم لست ملكا له واما هي من الصدقات . كلا ! فان هذا لا يتفق مع الضروري من تشريع الاسلام . لأن المسلم في عرف القرآن يملك بألوان متعددة من اسباب الملك عند الناس ونورب ما بتركه من أموال بعد وصية بوصي بها او دين . وان ترى معنى الان بوضوح ان الحكم ليس الا ان الصدقة لا نورب فان هذا أمر عام لا يختص بصدقة دون صدقة بل يطرد في سائر صدقات المسلمين ولا غرابة في بيان الحكم بعدم نورب الصدقات في صدر زمان التشريع مع وضوحه الآن . لان فواعد الشريعة واحكامها لم تكن قد تقررت

واشتهرت بين المسلمين فكان لا احتمال انفساخ الصدقات والاقواف بموت المالك ورجوعها الى الورثة متسع •
ولا يضعف قيمة هذا التفسير عدم ذكر الزهراء له واعتراضها به على الخليفة •

اما أولا : فلأن الموقف الحرج الذي وقفته الزهراء في ساعتها الشديدة لم يكن ليتسع لمثل تلك المناقشات الدقيقة حيث ان السلطة الحاكمة التي كانت تريد تنفيذ قراراتها بصورة حاسمة قد سيطرت على الموقف بصرامة وعزم لا يقبلان جدالا ولذا نرى الخليفة لا يزيد في جواب استدلال خصمه بآيات ميراث الانبياء على الدعوى الصارمة اذ يقول هكذا هو - كما في طبقات ابن سعد - فلم يكن مصير هذه المناقشات لو قدر لها أن تساهم في الثورة بنصيب الا الرد والفشل •

وأما ثانيا : فلأن هذه المناقشات لم تكن تتصل بهدف الزهراء وغرضها الذي كان يتلخص في القضاء على الاساليب التي هي أقرب الى تحقيق ذلك الغرض فتراها مثلا في خطابها الخالد خاطبت عقول الناس وقلوبهم معا ولكنها لم تتجاوز في احتجاجها الوجوه البديهة التي كان من الغريب ان يستنكر اغصاء الخليفة عنها كل أحد ، ويجبر ذلك الاستنكار الى معارضة حامية •

فقد نفت وجود سند لحكم الخليفة من الكتاب الكريم ثم ذكرت ما يخالفه من الآيات العامة المشرعة المنوارث بين سائر المسلمين (١) والآيات الخاصة الدالة على نورب بعض الانبياء كيجي وداود عليهما السلام ، ثم عرض المسألة على وجه آخر وهو : ان ما حكم به الخليفة لو كان حقا للزم أن يكون أعلم من رسول الله (ص) ووصيه لانها لم

(١) من الواضحات العلمية اخيرا ان الخبر الواحد المعتبر يصلح لتخصيص الكتاب لانه حاكم او وارد كما هو الصحيح على اصالة العموم واصالة الاطلاق وانما احتجت الزهراء بالآيات العامة لانها لم تكن تعترف بوثاقة الصديق وعدالته •

يخبرها بالخبر مع انها لو كانا على علم به لأخبرها به ، ومن الواضح ان الصديق لا يمكن أن يكون اعلم بحكم التركة النبوية من النبي (ص) او علي الذي ثبتت وصابته لرسول الله (ص) وذلك في قولها :

يا ابن ابي قحافة أفي كتاب الله ان ترث اباك ولا ارث ابي ؟ لقد جئت شيئا فريا ! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم ؟ اذ يقول : وورث سليمان داود ، وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا (رب هب لي من لدنك ولبا يرثني ويرث من آل يعقوب) وقال (واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله) افخصكم الله بآية اخسرج منها ابي ؟ ام هل تقولون : أهل ملتين لا يتوارثان ؟ ! أو لست أنا وأبي من أهل ملة واحدة ؟ ام انتم اعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي ؟ ! (١) .

وكانت أبرز الناحيتين في ثورتها الناحية العاطفية وليس من العجيب أن نصرف الزهراء أكثر جهودها في كسب معركة القلب فانه السلطان الاول على النفس والمهد الطبيعي الذي تنزع فيه روح الثورة .

وقد نجحت الحوراء في تلوين صورة فنية رائعة تهز المشاعر وتكهرب العواطف وتهيمن على القلوب كانت هي أفضل سلاح تسليح به امرأة في ظروف كظروف الزهراء .

ولأجل ان نستمتع بالجمال الفني في تلك الصورة الملونة بأروع الألوان لا بأس بأن نستمع الى الصديقة حين خاطبت الانصار بقولها :

يا معشر البقية ، وأعضاء الملة ، وحضنة الاسلام ، ما هذه الفترة عن نصرتي والونية عن معونتي ، والعزة في حقي ، والسنة عن غلامتي أما كان رسول الله (ص) يقول : المرء يحفظ في ولده ، سرعان ما احدثتم

(١) نقلنا هذه القطعة على وجه الاختصار .

وعجلان ما أتيتهم ، الآن مات رسول الله (ص) أمتهم دينه ها اى مونه
 لعمرى خطب جليل ، استوسع وهنه . واستبهم فقهه ، وفقد راتقه
 واظلمت الارض له ، وخشعت الجبال واكدت الآمال . اضيع بعده الحريم
 وهتكت الحرمة واذيلت المصونة . وتلك نازلة اعلن بها كتاب الله قبل موته
 وانباكم بها قبل وفاته فقال : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله
 الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن نقلب على عقبيه فلن يضر
 الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) ايها بني قيلة اهتضم ترانابي بمرأى ومسمع
 تبلغكم الدعوة ، ويشملكم الصوت وفبكم العدة والعدد ولكم السدار
 والجن ، وأتمم نخبة الله التي انتخب وخيرته التي اختار الخ ..

واذن فلم تكن المناقشات في تفسير الحديث ونأويله مما تهضمها
 السلطات الحاكمة ولا هي على علاقة بالغرض الرئيسي للثائرة من ثورتها
 وهذا يفسر لنا عدم تعرضها للنحلة في خطابها أيضا .

★ ★ ★

١ - يجب الآن توضيح موقف الخليفة تجاه الزهراء في مسألة
 الميراث وتحديد رأيه فيها - بعد ان أوضحنا حظ الصيغ السابقة من
 وضوح المعنى وخفائه - وهو موقف لا يخلو من تعقد اذا تعمقنا شيئا
 ما في درس المستندات التاريخية للقضية ومع ان المستندات كثيرة فانها
 مسألة محيرة ان نعرف ماذا عسى ان تكون النقطة التي اختلف فيها
 المتنازعان ، ومن الصعوبة توحيد هذه النقطة .

والناس يرون أن مثار الخلاف بين ابي بكر والزهراء هو مسألة
 توريث الانبياء فكانت الصديقة تدعى توريثهم والخليفة ينكر ذلك .
 وتقدير الموقف على هذا الشكل لا يحل المسألة حلا نهائيا ولا يفسر عدة
 أمور - :

(الأول) : قول الخليفة لفاطمة في مجاورة له معها - وقد طالبته بفدك - : ان هذا المال لم يكن للنبي (ص) وانما كان مالا من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال وبنفقه في سبيل الله فلما توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وليه كما كان يله . فان هذا الكلام بدل بوضوح على انه كان باقن في أمر آخر غير تورب الانبياء .

(الثاني) : فوله لفاطمة في محاورة اخرى : أبوك والله خير مني وانت والله خير من بنابي وقد قال رسول الله (ص) : لا نورث ما تركناه صدقة يعني هذه الاموال القائمة وهذه الجملة التفسيرية التي الحقها الخليفة بالحديث تحتاج الى عناية فانها تفيدنا ان الخليفة كان يرى ان الحكم الذي تدل عليه عبارة الحديث محض بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وليس ثابتا لتركة سائر الانبياء ولا لتركة سائر المسلمين جميعا فحدد التركة النبي لا تورث بالاموال القائمة وذكر ان رسول الله (ص) كان يعنيها هي بالحدث . وعلى هذا الحديد نفهم ان المفهوم للخليفة من الحديث ليس هو عدم توريث الصدقات لان هذا الحكم عام ولا اختصاص له بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا يجوز ان يحدد موضوعه بالاموال القائمة بل كان اللازم حينئذ ان يأتي الخليفة بجملة تطبيقية بأن يقول : ان الاموال القائمة مما ينطبق عليها الحديث .

كما يتضح لدينا ان الخليفة لم يكن يفسر الحديث بأن النبي (ص) لا نورث تركته وأملاكه التي يخلفها بل تصبح صدقة بعد موته لانه لو كان بذهب هذا المذهب في فهم الحديث لجاء التفسير في كلامه على اسلوب آخر لأن المقصود من موضوع الحديث حينئذ تركة النبي (ص) على الاطلاق ولا بعني الاموال القائمة التي كانت تطالب بها الزهراء خاصة واعني بذلك ان هذه الاموال القائمة لو كانت قد خرجت عن ملك النبي (ص) قبل وفاته لم يكن الحكم بعدم التورب ثابتا لها كما أن غيرها من

الاموال لو حصل (للنبي) لما ورثها آله أيضاً . فعدم ورث التركة النبوية ان نبت فهو امياز لكل ما يخلفه النبي (صلى الله وآله وسلم) من املاك سواء أكانت هذه التي خلفها أو غيرها . ولا نصح أن يقال : انه عني بالتركة الاموال القائمة التي كانت تطلب بها الزهراء .

ونظر ذلك فولك لصاحبك . اكرم كل من يزورك الليلة ثم بروره شخصان فانك لم تكن بكلامك هذين الشخصين خاصة وانما انطبق عليهما الامر دون غيرهما على سبيل الصدفة . وعلى اسلوب اوضح ان تفسير التركة التي لا تورث بأموال معه - وهي الاموال القائمة - قصي بأن الحكم المدلول عليه بالحدب مخصص - عند المفسر - بهذه الاموال المحدودة .

ولا ريب أن تركة النبي (صلى الله وآله وسلم) لو كانت لا تورث لما اخضع الحكم بالاموال المعينة المتروكة بالفعل بل ثبت لكل ملك تركته النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وان لم يكن من تلك الاموال وأيضاً فمن حق البحث أن أنساءل عن فائدة الجملة التفسيرية والغرض المقصود من وراثتها فيما اذا كان الحكم المفهوم للخليفة من الحديث أن أملاك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تورث فهل كان صدق التركة على الاموال القائمة مشكوكاً ؟ فأراد أن يرفع الشك لينطبق عليها الحديث ويثبت لها الحكم بعدم التوريث ، واداً صح هذا التدبير فالشك المذكور في صالح الخليفة لأن المال اذا لم يتضح انه من تركة الميت لا ينتقل الى الورثة فلا يجوز أن يكون الخليفة قد حاول رفع هذا الشك ولا يمكن أن يكون قد قصد بهذا التطبيق منع الزهراء من المناقشة في انطباق الحديث على ما تطلب به من اموال لانها مادامت قد طالبت بالاموال القائمة على وجه الارث فهي بعرف بانها من تركة رسول الله (ص) ولنفترض أن الاموال القائمة فسم من التركة النبوية

وليس المقصود منها مخلفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جميعا - ولعلها عبارة عن الاموال والعقارات الثابتة نحو فذك - فهل يجوز لنا تقدير أن غرض الخليفة من الجملة تخصيص الاموال التي لانورت بها ؟ لا أظن ذلك ، لان أملاك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تختلف في التوزيع وعدمه . ونخرج من هذه التأملات بنتيجة وهي أن المفهوم من الحديث للخليفة ان رسول الله (ص) أخبر عن عدم تملكه للاموال القائمة وأشار اليها بوصف الزكاة فقال ما تركناه صدقة ففسأنه شأن من بجمع ورثته ثم يقول لهم ان كل تركتي صدقة يحاول بذلك أن يخبرهم بانها لبس ملكا له ليرثوها بعده لان ذلك هو المعنى الذى يمكن أن يخص بالاموال القائمة ويحدد موضوعه بها :

(الثالث) : جواب الخليفة لرسول ارسلته فاطمة ليطالب بما كان لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة وفذك وما بقي من خمس خبير اذ قال له : ان رسول الله (ص) قال : لا نورث ما تركناه صدقة انما نأكل آل محمد من هذا المال ، واني والله لا أغير شيئا من صدقات رسول الله (ص) عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله (ص) . فانا اذا افترضنا أن معنى الحديث فى رأى الخليفة عدم توريت النبي (ص) لاملاكه كان كلامه مناقضا لان استدلاله بالحديث في صدر كلامه يدل حينئذ على أنه يعترف بأن ما يطالب به الزهراء هو من تركة النبي « ص » وأملاكه الى مات عنها - ليصح انطباق الحديث عليه - والجملة الاخيرة من كلامه وهي قوله : واني والله لا أغير شيئا من صدقات رسول الله (ص) عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله (ص) نعاكس هذا المعنى لأن ما طلبت الزهراء تغبره عن ايام النبي (ص) - بزعم الخليفة - هو فذك وعقارانه في المدينة وما بقي من خمس خبير فابو بكر حبن بفول: اني والله لا اغير شيئا من صدقات رسول الله (ص) بعني بها تلك الأموال التي طالبت بها الزهراء ورأى معنى

مطالبتها بها تغييرها عن حالها السابقة ومعنى تسميته لها بصدقات رسول الله (ص) ان من رأيه انها ليس ملكا للنبي (ص) بل من صدقاته التي كان يتولاها في حياته ويوضح لنا هذا ان استدلاله بالحديث في صدق كلامه لم يكن لاثبات ان املاك النبي (ص) لا تورب وانما اراد بذلك نوضح ان الأموال القائمة ليست من أملاك النبي لأنه (ص) ذكر انها صدقة .

٢ - ونستطيع ان نتبين من بعض روايات الموضوع ان الخليفة ناقش في توريث الانبياء لأملأهم ولم يقصر النزاع على الناحية السابقة فان الرواية التي تحدثنا بخطبة الزهراء واستدلال أبي بكر بما رواه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من حديث : انا معاشر الانبياء لا نورث الخ . . واعتراض الزهراء عليه بالآيات العامة المنسقة للمرات والآيات الخاصة الدالة على تورث بعض الانبياء تكشف عن جانب جديد من المنازعة اذ ينكر أبو بكر توريث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأمواله ويسند الى الحديث في ذلك ويلج في الانكار كما تلج فاطمة في مناقشته والنشبت بوجهة نظرها في المسألة .

٣ - واذن فللخليفة حديثان : -

(الاول) لا نورث ما تركناه صدقة .

(والثاني) انا معاشر الانبياء لا نورث دهباً ولا فضة . وقد ادعى أمرين : -

«أحدهما» ان فدكا صدقة فلا نورث .

«والآخر» ان النبي (ص) لا تورب املاكه واسدل بالحديث الاول على أن فدكا صدقة. وبالحديث الثاني على أن النبي (ص) لا تورث .

★ ★ ★

١ - قد لا تكون من العسير تصفة الحساب مع الخليفة بعد أن

اتضح موقفه ونفرت الملاحظات التي لاحظناها في الحديثين الذين رواهما عن النبي (ص) ونلخص المؤاخذة التي آخذناه بها حتى الآن في عدة أمور سبر إليها لنجمع نتائج ما سبق :

(الاول) ان الحليف لم يصدق روايته في بعض الاحايين كما المعنا في مسهل هذا الفصل . .

(الثاني) ان من الاسراف في الاحمال ان نجور اسرار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى الحليف بحكم بركه واخفاءه عن بصغنه وسائر ورنه وكف احص الحلقة دون غيره بمعرفة الحكم المذكور (١) مع ان النبي (ص) لم يكن من عادته الاجماع بأبي بكر وحده الا بأن يكون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اخبره بالخبر في خلوه متممه ليبقى الامر مجهولا لدى ورنه وبصغنه وبضبطه بذلك الى آلامها من ورائه محنة جديدة .

(الثالث) ان علما هو وصي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بلا رب للحديث الدال على ذلك الذي ارفع به روايته الى درجة النواتر والبقين حتى شاع في شعر اكابر الصحابة فضلا عن رواياتهم كعبد الله ابن عباس وخزيمة بن ثابت الانصاري وحجر بن عدي وزي الهيثم بن التيهان وعبد الله بن ابي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب وحسان بن ثابت وأمر المؤمنين علي بن أبي طالب (٢) وادن فالوصاية من الاوسمة الاسلامية الرفعة التي اخض بها الامام بلا ريب (٣) .

(١) حتى قالت عائشة هي كلام لها . واختلفوا في ميراثه فما وجدنا

عند أحد في ذلك علما فقال ابو بكر . سمعت رسول الله (ص) يقول . انا معاشر الانبياء لا نورث الخ . راجع صواعق ابن حجر .

(٢) راجع شرح النهج ج ١ ص ٤٧ - ٤٩ وح ٣ ص ١٥ .

(٣) قال ابن ابي الحديد ج ١ ص ٤٦ فلا ريب عندها ان عليا (ع) كان

وصي رسول الله (ص) وان خالف في ذلك من هو منسوب عندنا الى العناد .

وقد اختلف شعة علي وشعة ابي بكر في معنى هذه الوصاية فذهب السافون الاولون الى انها بمعنى الص عليه بالخلافة وتأولوها الآخرون فقالوا : ان عليا وصي رسول الله (ص) على علمه او شريعته او مخصاه ولا نريد الآن الاعراض على هؤلاء او تأييد اولئك وانما نتكلم على الحدب بمقدار ما يتطلبه اتصاله بموضوع هذا البحث ونقرر النبعة النبي يقضي بها على كل من تلك النفاسير .

فنفترض اولا : ان الوصاية بمعنى الخلافة ثم تتبين الصديق على هدى الحدب فاننا سوف نراه شخصا سارفا لأنفس المعنويات الاسلامبة ومنصرفا في مقدرات الامة بلا سلطان شرعي . ولا مجال لهذا النسخ حنئد ان يحكم بن الناس . ولا يسعنا ان نؤمن له بحديث . ولنترك هذا التفسير ما دام شديد القسوة على صاحبنا ونقول : ان عليا وصي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على علمه وشريعته فهل يسعنا مع الاعتراف بهذه الوصاية المقدسة ان نؤمن بحديث ينكره الوصي . وما دام هو العين الساهرة على شرعة السماء فلا بد أن يؤخذ رأيه في كل مسألة نصا لا ماقشة فيه لانه ادرى بما اوصاه به رسول الله (ص) وائمنه عليه وخذ البك بعد ذلك الاسلوب الثالث فانه ينهى الى النتيجة السابقة عينها لان عليا اذا كان وصيا لرسول الله (ص) على تركته ومختصاته فلا معنى لسطو الخليفة على التركة النبوية ووصي النبي (ص) عليها موجود وهو اعرف بحكمها ومصيرها الشرعي .

(الرابع) ان تأميم التركة النبوية من اوليات الخليفة في التاريخ ولم تؤثر في تواريخ الامم السابقة ذلك ولو كان قاعدة متبعة قد جرى عليها الخلفاء بالنسبة الى تركة سائر الانبياء لاشتهر الامر وعرفته أمم الانبياء جميعا .

كما ان انكار الخليفة للمكية رسول الله (ص) لفدك - كما تدل

عليه بعض المحاورات، السابقة - كان فيه من التسرع شيء كبير لأن فذكا
 مما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب بل استسلم اهلها خوفا ورعبا
 باتفاق اعلام المؤرخين من السنة والتبعة • وكل ارض يستسلم اهلها
 على هذا الاسلوب فهي للنبي (ص) خالصة • وقد اشار الله تعالى في
 الكتاب الكريم الى ان فذكا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نقوله :
 وما آفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه بحبل ولا ركاب^(١) ولم
 ينبت بصدق النبي بها ووقفه لها •

(الخامس) ان الحديثين الذين اسدل بهما في الموضوع لا يفوم
 منهما دليل على ما أراد ، وقد خرجنا من دراستهما فريبا بمعنى لكل منهما
 لا يتصل بمذهب الحليفة عن قرب او بعد ، وان أبيت فلنكن المعانسي
 الآفة الذكر متكافئة ولكن العبارة ذات نقادير متساوية • ولا يجوز
 حينئذ ترجيح معنى لها والاسندال بها عليه •

٢ - هذه هي الاعراضات التي اتهمنا اليها آفا • ونضيف اليها
 الآن اعتراضا سادسا بعد ان نفرض ان جملة انا معاشر الانبياء لا نورث
 أقرب الى نفي الحكم بالميراث منها الى نفي التركة الموروثة ونقدر لجملة :
 لا نورث ما تركناه صدقة • من المعنى ما ينفع الخليفة ونلغي تفسيرها بأن
 الصدقة المتروكة لا نورث نم ندرس المسألة على ضوء هذه النقادير •
 وهذا الاعراض الجديد هو ان اللازم - في العرف العلمي - منى
 صحت هذه الفروض تأويل الخبر ولم يجرى الركون الى اوضح معانيه لأنه
 يقرر حينئذ عدم توريت سائر الانبياء لتركاتهم لما جاء في بعضها من
 التصريح بالتعميم نحو انا معاشر الانبياء لا نورث ولما دل عليه بالنون
 في قوله : لا نورث ما تركناه صدقة ، من تعليق الحكم على جماعة وحيث

(١) راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٩ وتاريخ الكامل ج ٢ ص ٨٥
 وشرح النهج ج ٤ ص ٧٨ •

يصح ان الحكم في الجذب عدم ثورب الركة سجلي ان المراد بالجماعة جماعة الاسباء ادلا بوجد جماعة اخرى بحمل عدم انتفال بركانها الى الورثة ، وقد دل صريح القرآن الكريم على ثورب بعض الاسباء اذ قال الله ببارك وبعالى في كتابه الكريم مجبرا عن ذكرها عليه السلام . «واني حبص الموالى من ورائى وكان امرأى عافرا فهب لى من لدنك ولىا ربى ورب من ال يعنوب واجعله رب رضبا » والارب في الابة بمعنى ارب المال لانه هو الذى ينقل حصة من الموروث الى الوارب واما العلم والبسوه فلا بسلان اسعالا حصفا . وامساع انقال العلم على نظرية اتحاد العاقل والمعقول^(١) واصح كل الوضوح واما اذا اعزفنا بالمغارة الوجودية بينهما فلا ريب فى بجرد الصور العلمية^(٢) وانها قائمه بالنفس فبامسا صدوريا^(٣) بمعنى انها معلولة للنفس والمعلول الواحد بحسب الدات —

(١) وتقوم الفكره في هذه النظرية على ان الصور المعقولة — وهي عباره عن وجود مجرد عن الماده — لاقوام لها الا تكونها معقولة فالمعقولة نفس هويتها وتجريدها عن العاقل تجريد لها عن نحو وجودها الخاص . وهذا آية الوحدة الوجودية واذن فتدرج النفس في مراتب العلم هو تدرجها فى أطوار الوجود وكلما صار الوجود النفسي مصداقا فالمفهوم عقلي جديد راد في تكامله الجوهرى واصبح من طراز ارفع . ولا مانع مطلقا من اتحاد مفاهيم متعددة في الوجود كما يتحد الجنس والفصل وليس ذلك كالوحدة الوجودية لوجودين أو الوحدة المفهومية لمفهومين فان هاتين الوجودتين مستحيلتان في حساب العقل دون داك الاتحاد . والتوسع لا محال له .

(٢) فان الحق تحرد جميع مراتب العلم والصور المدركة ولكن على تفاوت في مراتب التجريد فان المدرك بالذات لا يمكن ان يكون نفس الشيء بهويته المادية فحتى المدرك بحاسة البصر له نحو من التحرد وليس هي نورية خروج الشعاع أو الانطباع وما ثبت حول الرؤية في علم المرايا أو بحوث الفيزياء ما يفسر الادراك البصري تفسيراً فلسفياً فلا بد من الاعتراف بتجرده فضلا عن الخيال والعقل وقد أوضحنا هذا المذهب في كتابنا العقيدة الالهية في الاسلام .

(٣) لا قياما حلوليا بمعنى كونها أعراضا لها وانما ذهب هذا المذهب بعض الفلاسفة لحل المشكلة التي اعترضت الباحثين عندما ارادوا ان يوفقوا بين أدلة الوجود الذهني وبين ما اشتهر من كون العلم كىما وهي ان الصورة المعقولة اذا كانت كىفا فما نتعلقه من الانسان ليس جوهرًا لانه كىف وليس



لا بمجرد الاتصال فقط - متقوم بعلمه ومرتبطة الهوية بها فيستحيل انتقاله الى علته اخرى ولو افترضنا ان الصور المدركة اعراض وكيفيات قائمة بالمدرک فياما حلوليا فيسبحيل انتقالها لاستحالة انتقال العرض من موضوع الى موضوع كما برهن عليه في الفلسفة سواء أفلنا بتجردها او بماديتها بان اعترافنا باشتغال الصور المدركة على الحقائق العامة للمادة من قابلية الانقسام وبحوها .

وادن فالعلم يستحل انتقاله في حكم المذاهب الفلسفية الدائرة حول الصور العلمية جميعا .

وإذا لاحظنا البؤة وجدنا انها هي الاخرى ايضا مما لا يجوز في عرف العمل انتقالها سواء أذهبنا في تفسيرها مذهب بعض الفلاسفة وقلنا انها مرتبة من مراتب الكمال النفسي ودرجة من درجات الوجود الانساني الفاضل الذي نرفع اليه المهبة الانسانية في ارتقاءها الجوهرية ونصاعدها نحو الكمال المطلق او اخذنا بالمعنى المفهوم للناس من الكلمة واعتبرنا النبوة منصبا إليها مجموعولا لا كمنصب الملك والوزير ويكون ذلك التكامل النفسي شرطا له فالمفهوم الاول يمنع انتقاله بالضرورة لانه نفس وحوادث النبي (صلى الله عليه وآله) وكمالاته الذاتيه . والنبوه بالمعنى الآخر



انسانا اذن لان كل انسان جوهر وانما هو مثال . ولما افلست جميع الحلول التي وضعت لحل التشبه من انكار الوجود الذهني وتقرير مذهب المثالية . واختيار التعدد وكون العلم عرضا والمعلوم جوهرًا وتفسير الجوهر بأنه الموجود المستقل خارجا لا ذهنا والاقبال . اضطر الباحثون المتأخرون الى تقرير أن الصورة المعقولة من الجوهر جوهر لا كيف غير ان الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي اختار في الاسفار انها جوهر بحسب ماهيتها وكيف بالعرض . ويمكن الاعتراض عليه بان كل ما بالعرض لا بد ان ينتهي الى ما بالذات وادن فلا بد ان نفترض كيفا حقيقيا متحدا مع الصورة لتكون كيفا بالعرض وتنتهي النظرية حينئذ بصاحبها الى أحد أمرين أما الالتزام بتعدد ما في النفس او الاصطدام بالمشكلة الاولى نفسها ولذا كان الافضل تقرير ان الصورة المدركة من الانسان مثلا جوهر وليست بعرض اطلاقا وارتباطها بالنفس ارتباطا المعلول بالعللة لا العرض بموضوعه .

يستحيل انتقالها أيضا لأنها حينئذ أمر اعتباري متشخص الاطراف ولا يعقل تبدل طرف من اطرافه الا ببديل نفسه وانقلابه الى فرد آخر فنبوّة زكريا مثلا هي هذه النبي اختص بها زكريا ولن يعقل نبوتها لشخص آخر لأنها لا تكون حينئذ تلك النبوة الثابتة لزكريا بل منصبا جديدا او مقاما نبويا حادثا •

والنظر الاولي في المسألة يقضي بامتناع انتقال العلم والنبوة من دون حاجة الى هذا العمق والتوسع واذن فالنتيجة النبي يقررهما العقل في شوطه الفكري المصير الذي لا يعسر على الخليفة مساييرته فيه هي ان المال وحده الذي ينفل دون العلم والنبوة •

٣ - وقد يعترض على تفسير الارث في كلام زكريا بآب المال بأن يجبي عليه السلام لم يرث مال أبيه لاستشهاده في حياته فيلزم تفسير الكلمة بآب النبوة لأن يجبي قد حصل عليها ويكون دعاء النبي حينئذ قد استجيب • ولكن هذا الاعتراض لا يخص بتفسير دون تفسير لأن يجبي عليه السلام كما انه لم يرث مال أبيه كذلك لم يخلفه في نبوته • وما ثبت له من النبوة لم يكن وراثيا وليس هو مطلوب زكريا وانما سأل زكريا ربه وارثا برثه بعد موته ولذا قال : واني خفت الموالي من ورائي اي بعد موتي فان كلامه بدل بوضوح على انه اراد وارثا يخلفه ولم يرد بآب يعاصره والا لكان خوفه من الموالي بعد وفاته ناويا - فلا بد - على كل تقدير - ان نوضح الآلة على اسلوب يسلم عن الاعتراض وهو أن تكون جملة برثني وبر من آل يعقوب ، جوابا للدعاء بمعنى ان رزفتني ولدا برث لا صفة لكون زكريا قد سأل ربه ولبا وارثا • فما طلبه النبي من ربه تحقق وهو الولد وبورثه المال او النبوة لم يكن داخلا في جملة ما سأل ربه وانما كان لازما لما رجاه في معنقد زكريا (ع) •

ويحلف نهدير العبارة صفة عن نقدبرها جوابا من النواحي اللفظية

في الاعراب لأن الفعل اذا كان صفة فهو مرفوع واذا كان جوابا يتعين
جزمه • وقد ورد في قراءته كلا الوجهين •

واذا لاحظنا قصة زكريا في موضعها القرآني الآخر وجدنا انه لم
يسأل ربه الا ذرية طيبة فقد قال تبارك وتعالى في سورة آل عمران :
هنالك دعا زكريا ربه قال : « رب هب لي من لدنك ذرية طيبة » •

وافضل الاساليب في فهم القرآن ما كان منه مركزا على القرآن
نفسه وعلى هذا فنفهم من هذه الآية ان زكريا كان مقتصدا في دعائه
ولم يطلب من ربه الا ذرية طيبة وقد جمع القرآن الكريم دعاء زكريا في
جملة واحدة تارة وجعل لكل من الذرية ووصفها دعوة مستقلة في موضع
آخر فكانت جملة هب لي من لدنك وليا طلبا للذرية وجملة واجعله ربي
رضيا دعوة بأن تكون الذرية طيبة • واذا جمعنا هاتين الجملتين ادت
نفس المعنى الذي تفيدته عبارة هب لي من لدنك ذرية طيبة • وتخرج كلمة
(يرثني) بعد عملية المطابقة بين الصيغتين القرآنيتين عن حدود الدعاء ولا بد
حينئذ ان تكون جوابا له •

٤ - وعلى ذلك يتضح ان كلمة الارث في الآية الكريمة قد اعطيت
حقها من الاستعمال واريدها بها ارث المال لا ارث النبوة لأن الشيء انما
يصح ان يقع جوابا للدعاء فيما اذا كان ملازما للمطلوب ومتحققا عند
وجوده دائما او في اكثر الاحايين • ووراثه النبوة ليست ملازمة لوجود
الذرية اطلاقا بل قد لا تتفق في مئات الملايين من الاشخاص لما يلزم في
هذا المقام من كفاءة فذة وكمال عظيم فلا يجوز ان توضع النبوة بجلالها
الفريد جوابا لسؤال الله تعالى ذرية طيبة لأن النسبة بين الذرية الانسانية
وبين الجديرين بتحمل اعباء الرسالة السماوية هي النسبة بين الآحاد
والملايين واما وراثه المال فيمكن ان تكون جوابا لدعاء زكريا عليه السلام
لأن الولد يبقى بعد أبيه على الاكثر فوراثة للمال مما يترتب على وجوده

غالبا واضف الى ذلك ان زكريا نفسه لم يكن يرى النبوة ملازمة لذريته بل ولا ما دونها من المراتب الروحية ولذا سأل ربه بعد ذلك بأن يجعل ولده رزيا •

هـ - ولنترك هذا لندرس كلمة الارث في الآية على ضوء تقدير الفعل صفة لا جوابا للدعاء • وفي رأيي ان هذا التقدير لا يضطرنا الى الخروج بنتيجة جديدة بل الارث في كلمة - يرثني - هو ارث المال في الحاليين معا بلا ريب • والذي يعين هذا المعنى للكلمة على التقدير الجديد أمران : -

الاول : ان زكريا عليه السلام لو كان قد طلب من ربه ولدا وارثا لنبوته لما طلب بعد ذلك ان يكون رزيا لانه دخل في دعوته الاولى ما هو ارفع من الرضا •

الثاني : ان اغفال الارث بالمرة في قصة زكريا الواردة في سورة آل عمران ان لم يدل على ان الارث خارج عن حدود الدعاء فهو في الاقل يوضح ان معنى الارث في الموضع القرآني الآخر للمقصة ارث المال لا ارث النبوة لأن زكريا لو كان قد سأل ربه أمرين أحدهما ان يكون ولده طبيا رزيا والآخر أن يرث نبوه لما اقصر القرآن الكريم على ذكر الوصف الاول الذي طلبه زكريا عليه السلام فانه لبس شيئا مذكورا بالاضافة الى النبوة • ولكي تفق معي على هذا لاحظ نفسك فيما اذا سألك سائل بسائنا ودرهما فاعطيته الامرين معا ثم اردت ان نقل القصة وتحص الدرهم بالذكر • لا أراك تفعل ذلك الا اذا كنت كتبر المواضع ورجحان البستان على الدرهم في حساب الفهم المادية دون امتياز النبوة على طيب الذرية في موازين المنوبات الروحية واذن فقصة زكريا التي جاءت في سورة آل عمران • ولم بدكر فيها عن الارث كثير او قليل دليل على ان الارث المذكور في الصورة الاخرى للقصة بمعنى ارث المال لا ارث النبوة

والا لكان من ابرز عناصر القصة التي لا يمكن اغفالها •

٦ - ولاحظ بعض الباحثين في الآية الكريمة نقطتين تفسران الارث فيها بإرث النبوة •

الاولى - قول زكريا عاطفا على كلمة (يرثني) : - ويرث من آل يعقوب - فان يحيى لا يرث أموال آل يعقوب ، وانما يرث منهم النبوة والحكمة •

الثانية - ما قدمه النبي تمهيدا لدعائه من قوله : واني خفت الموالي من ورأتي حيث ان خوفه انما كان بسبب الاشفاق على معالم الدين والرغبة في بقاءها باستمرار النبوة لأن هذا هو اللائق بمقام الأنبياء دون الحر - على الاموال والخوف من وصولها الى بعض الورثة •

واعترض اصحابنا على النقطة الاولى بان زكريا عليه السلام لم يسأل ربه أن يرث ولده أموال آل يعقوب جميعا وانما اراد ان يرث منها فلا يكون دليلا على التفسير المزعوم •

وأما النقطة الثانية فهي من القرائن على التفسير الذي اخترناه لان الخوف على الدين والعلم من ابناء العم لا معنى له لان اللطف الالهي لا يترك الناس سدى بلا حجة بالغة فمعالم الدين وكلمة السماء محفوظة بالرعاية الالهية والنبوة مخصوصة ابدا بالأقلين من نوابغ البشر لا يخشى عليها من السطو والنهب واذن فماذا كان بحسب زكريا ربه صانعا لو لم يمن عليه بيحيى ، أكان يحتمل أن يكلف برسالة مواله أعني بني عمومه مع عدم كفائتهم للقيام بواجب الرسالة الالهية وعدم جدارتهم بهذا الشرف او كان يرى ان الله تعالى بهمل امر خلقه لبيكون لهم الحجة عليه ليس هذا ولا ذاك مما يجوزه نبي • وانما خاف زكريا من بني اعمامه على امواله فطلب من الله ولدا راضيا يرثها • ولا جناح عليه في ذلك اذ يحتمل ان

تكون رغبته في صرف امواله عن بني عمومته بسبب أنها لو آلت اليهم
لوضعوها في غير مواضعها وانفقوها في المعاصي والوان الفساد لما كان
يلوح عليهم من علامات الشر وامارات السوء حتى قيل انهم شرار بني
اسرائيل •

وقد حاول ابن ابي الحديد ان يصور وجها لخوف زكريا من
الموالي على الدين من ناحيتين : -

الاولى : عن طريق اصول الشيعة فذكر ان دعوى امتناع مثل هذا
الخوف على النبي غير مستقيم على مذهب الشيعة لأن المكلفين قد حرموا
بغية الامام عندهم الطافا كثيرة الوصلة بالشرعيات كالحدود وصلاة الجمعة
والاعياد وهم يقولون في ذلك ان اللوم على المكلفين لانهم قد حرموا
انفسهم اللطف فهلا جاز ان يخاف زكريا عليه السلام من تبديل الدين
وتغييره وافساد الاحكام الشرعية لانه انما يجب على الله التبليغ بالرسول
الى المكلفين فاذا أفسدوا هم الاديان وبدلوها لم يجب عليه ان يحفظها
عليهم لانهم هم الذين حرموا انفسهم اللطف •

ولأسجل ملاحظتي على هذا الكلام ثم اتقل بك الى الناحية الثانية
فأقول : ان الخوف من انقطاع النبوة انما يصح على اصول الشيعة اذا
نشأ عن احتمال افساد الناس لدينهم على نحو لا يستحقون معه ذلك كما
هو الحال في زمان غيبة الامام المنتظر صلوات الله عليه لا فيما اذا كان
سببه الاطلاع على عدم لياقة جماعة خاصة للنبوة مع استحقاق الناس
لها فان ارسال الرسول او نصب من يقوم مقامه واجب في هذه الصورة
على الله تعالى لما أوجبه على نفسه من اللطف بعباده واذن فقصور أبناء
العمومة عن نيل المنصب الالهي لا يجوز ان ينتهي بزكريا الى احتمال
انقطاع النبوة وانطماس معالم الدين اذا كان الناس مستحقين للالطاف
الالهي • واذا لم يكونوا جديرين بها فمن الممكن انقطاع الاتصال بين

السماء والارض سواء أكان بنو العمومه صالحين للنبوة او لا وسواء من الله عليه بذرية أو بقي عقيما • والآية الكريمة تدل على أن الباعث الى الخوف في نفس زكريا انما هو فساد الموالي لا فساد الناس •

اللاحية البانية : عن طريق تفسير الموالي بالأمراء بمعنى ان زكريا خاف ان يلي بعد موته أمراء ورؤساء يصدون شيئا من الدين فطلب من الله ولدا ينعم عليه بالنبوة والعلم ليبقى الدين محفوظا •

ولنا أن تتساءل عما اذا كان هؤلاء الرؤساء الذين اشفق على الدين منهم هم الانبياء الذين يخلفونه او انهم اصحاب السلطان الزمني والحكم المنفصل عن السماء • ولا خوف منهم على التقدير الاول اطلاقا لانهم انبياء معصومون • واما اذا كانوا ملوكا فقد يحسب منهم على الدين ولكن ينبغي ان نلاحظ ان وجود النبي حسد هل يسمعهم عن اللعاب في الشريعة والاستحفاف بالدسنور الالهي اولا فان كان كافيا لوقاية الشريعة وصون كرامتها فلماذا خاف زكريا من اولئك الامراء ما دامت اللطاف الالهية قد ضمنت للنبوة الامتداد في تاريخ الاسانيه الواعية وخلود الاتصال بين الارض والسماء ما بقيت الارض اهلا للتشريف السماوي • وان لم يكن وجود النبي كافيا للحراسة المطلوبة فلا يرتفع الحوف من الحاكمين بوجود ولد لذكرنا يرت عنه النبوة ما دام النبي فاصرا عن مقاومة القوة الحاكمة وما دام الامراء من الطراز المعنوش مع ان الآية تدل على ان زكريا كان يرى ان خوفه يرتفع فيما اذا من الله عليه بولد رضي يرثه •

وتنتيجة هذا البحث ان الارث في الآية هو ارث المال بلا ريب • واذن فبعض الانبياء يورثون وحدهم الخليفة يقضي بأن الجميع لا يورثون فالآية والرواية منعكسان وكل ما عارض الكتاب الكريم فهو ساقط •

ولا يجوز ان نستثني زكريا خاصة من سائر الانبياء لأن حديث الخليفة لا يقبل هذا الاستثناء وهذا التفريق بين زكريا عليه السلام وغيره والنسبة ان افتضت عدم التوريب فالأنبياء كلهم لا يورثون ولا نحتمل ان يكون لنسبة زكريا عليه السلام حاصية جعله يورث دون سائر الانبياء • وما هو ذنب زكريا عليه السلام او ما هو فضله الذي يسجل له هذا الامتياز • اصف الى ذلك ان تخصيص كلمه الانبياء الواردة في الحديث والخروج بها عما تستحقه من وضع لا ضرورة له بعد ان كان الحديث قابلا للتفسير على اسلوب آخر ان لم يكن هو المفهوم الظاهر من الحديث كما اوضحناه سابقا فهو تفسير على كل حال فلماذا نفسر الحديث بأن بركة النبي لا يورث لنضطر الى ان نقول بأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعني بالأنبياء غير زكريا عليه السلام بل لناخذ بالتفسير الآخر ونفهم من الحديث ان الانبياء ليس لهم من نفائس الدنيا ما يورثونه ونحفظ للفظ العام حقيقته (١) •

ونعرف مما سبق ان صيغة الحديث لو كانت صريحة في ما اراده الخليفة لها من المعاني لناضت القرآن الكريم ومصيرها الاهمال حيثئذ وليس في المسألة سبيل الى اعتبار الحديث مدركا فانونيا في موضوع التوريب ولذا لم يفظ الصديق الى جواب يدفع به اعراض خصمه عليه بالآية الآتية الذكر ولم يوفق واحد من اصحابه الى الدفاع عن موقفه • وليس ذلك الا لانهم احسوا بوضوح ان الحديث يناقض الآية بمعناه الذي يبرر موقف الحاكمين •

(١) والجملة خبرية وليست انشائية لان انشاء حكم على الانبياء بعد وفاتهم وانقراض ورثتهم لا معنى له وحيثئذ فالتخصيص يستلزم مجازية الاستعمال وليس شأن صيغة الحديث شأن الجمل الانشائية التي يكشف تخصيصها عن عدم ارادة الخاص بالارادة الجدية ويقدم لذلك على سائر التأويلات والتجوزات بل هي خبرية والجملة الخبرية اذا خالفت الارادة الاستعمالية فيها الجد والحقيقة كانت كذبا فتخصيصها يستلزم صرفها الى المعنى المجازي وحيثئذ فلا يرجع على تجوز آخر اذا دار الامر بينهما •

ولا يمكن ان نعتذر عن الخليفة بأنه يجوز اخيار أحد النصين
المسايفين ونفيده كما يرثه جماعه من علماء الاسلام وفد اثار ان ينفذ
مداول الحذب وذلك لأن المعارض للفرآد باطل بلا ريب لأنه الحق وهل
بعد الحق الا الضلال •

* * *

الناجيه الثانيه : المناصفه الي فامب بين الحليفه والصديقه حول
رحلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اياها فدكا ففد ادعت الصديقه
النحلة وشهد بذلك قربنها وأم أيمن فلم يقبل الحليفه دعواها ولم يكتف
بناهدبها وطالبها بسه كامله وهي رجلا او رجل وامرأان •

١ - والنهضه الاولى الي نواحد الصديق عليها هي وقوفه موقف
الحاكم في المسأله مع ان خلافه لم نكتسب لونا سريعا الي ذلك الحين
على أقل تقدير ولكننا لا نريد الآن ان نضع هذه المؤاخذه فيد الدرس
لأن المناقشه على هذا السكل تبعنا الي آفاق واسعه من البحث ونضطرنا
الي نسب الححر الأساسي لدنيا السياسة في الاسلام وهي عملبه لها
حساب طويل •

٢ - والملاحظه الثانيه في الموضوع هي ان فدكا اذا كانت في
حيازة الزهراء عليها السلام فلا حاجة لها الي البيه وفي هذه الملاحظه
امران :

أولا : من هو الذي كانت فدك في حيازته ؟ وهل كان في يد
الزهراء حقا ؟ قد يمكن ان نفهم ذلك من قول أمير المؤمنين في رسالته
الحالده الي عثمان بن حنيف : بلى كانت في ايدينا فدك من كل ما أظلته
السماء فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين • فان المفهوم
من كلمه أيدينا ان فدكا كانت في ايدي اهل البت وقد نصت على ذلك
روايات الشيعة •

وحصر ما كان في تلك الأيدي التي عنها الإمام بفدك يدل على أنها كانت في حيازة علي وزوجه خاصة ويمنع عن تفسير العبارة بأن فدكا كانت في يد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) باعتبار أن حيازته حباره أهل البيت لأننا نعلم أن رسول الله (ص) كانت في يده أشياء أخرى عبر فدك من محصانه وأملاكه •

وبأننا : هل الحارة دليل على الملكة ؟ والجواب الإيجابي عن هذه المسألة مما أجمع عليه المسلمون ولولا اعتبارها كذلك لاخلط السطام الاجتماعي للحاد الإنسانية •

وفد بعترض على دعوى أن فدكا كانت في يد الزهراء بأنها لم يحج بذلك ولو كانت في يدها لكفاها ذلك عن دعوى النحلة والاستدلال بآيات الميراث وفي المستندات التبعية للمضية جواب عن هذا الاعتراض لأنها تعمل احتجاج أهل البيت بذلك على الخليفة غير أننا لا نريد دراسة المسألة على ضوء شيء منها •

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن فدكا كانت أرضاً مترامية الأطراف وليس شأنها شأن الوافه من الأملاك والمختصات الصغيرة التي تصح حيازة مالكيها لها بأدنى ملاحظة • فإذا افترضنا أن فدكا كانت في يد فاطمة يعهد لها وكيلها الذي يقوم بزراعتها فمن يجب أن يعرف ذلك من الناس غير الوكيل •

ونحن نعلم أن فدكا لم تكن قرية من المدينة ليطمع أهلها على شؤونها ويعرفوا من ينولها فقد كانت بعد عنها بأيام كما أنها قرية يهودية وليس في محيط إسلامي لتكون حيازة فاطمة لها معروفة بين جماعة المسلمين •

فماذا كان يمنع الزهراء عن الاعتقاد بأن الخليفة سوف يطالبها بالبيعة على أن فدكا في يدها إذا ادعت ذلك كما طالبها على النحلة ما دام

في نظرها - مسيرا في الموقف بقوة طاغية من هواء لا تجعله يعترف بشيء •

وكان من السهل في ذلك اليوم ان نبتلع الحوت وكيل فاطمة على فدك او اي شخص له اطلاع على حقيقة الامر كما ابتلت ابا سعيد الخدري فلم يرو النحلة وقد حدث بها بعد ذلك كما ورد في طريق المربقين أو أن تفنله الجن كما قتل سعد بن عباد وأراحت الفاروق (١) أو أن يهم بالرد لأنه امتنع عن تسليم صدقة المسلمين للخليفة كما اتهم مانعوا الزكاة والرافضون لتسليمها له •

٣ - ولنترك هذه المواقف لنصل الى المسألة الأساسية وهي : ان الحليفة هل كان يعتقد بعصمة الزهراء ويؤمن بآية النطير التي نفت الرجس عن جماعه منهم فاطمة اولا •

ونحن لا نريد ان ننسج في الكلام على العصمة واثباتها للصديقة بآية النطير لأن موسوعات الامامية في فضائل اهل البيت تكفيها هذه المهمة ولا نشك في ان الخليفة كان على علم بذلك لأن السيدة عائشة نفسها كانت تحدث بنزول آية النطير في فاطمة وقرينها وولديها (١) وقد صرحت بذلك صحاح الشيعة والسنة وكان رسول الله (ص) كلما خرج الى الصجر بعد نزول الآية يمر ببيت فاطمة ويقول الصلاة يا اهل البيت انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ، وقد استمر على هذا ستة أشهر (٢) •

(١) وقد جاءت الرواية مصرحة بان عمر ارسل رسولا الى سعد ليقتله ان لم يبايع فلما ابى سعد قتله الرسول راجع عقد الفريد ج ٣ ص ٦٣ •
(٢) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٣١ •
(٣) رواه الامام أحمد في مسنده ج ٣ ص ٢٩٥ عن انس واخرجه الحاكم ايضا وشهد بصحته •

واذن فلماذا طلب الخليفة بينة من فاطمة على دعواها وهل تحتاج الدعوى المعلوم صدقها الى بينة ؟

فال المعرضون على ابي بكر : ان البينة انما تراد لعلب في الظن صدق المدعي والعلم اقوى منها فادا لزم الحكم للمدعي الذي تقوم البينة على دعواه يجب الحكم للمدعي الذي بعلم الحاكم بصدقه .

والاحظ ان في هذا ادليل ضعفا ماديا لأن المفاينة لم تتم فيه بين البينة وعلم الحاكم بالاضافة الى صلب الواقع وانما لوحظ مدى تأثير كل منهما في نفس الحاكم وكانت السبجة حينئذ ان العلم اقوى من البينة لأن اليقين اشد من الظن . وكان من حق المفاينة ان يلاحظ الاقرب منهما الى الحقيقة المطلوب مبدئيا الأخذ بها في كل محاسبة . ولا يضل علم الحاكم في هذا الطور من المقاييس على البينة لأن الحاكم قد يحطأ كما ان البينة قد تحطأ فهما في شرع الواقع سواء كلاهما مظنه للراى والاشباه .

ولكن في المسألة أمر غفل عنه الباحثون أيضا وهو أن ما يعلمه الخليفة من صدق الزهراء يستحيل ان لا يكون حقيقة . لأن سبب علمه بصدقها ليس من الاسباب التي قد تنتج توهمها خاطئا وجهلا مركبا وانما هو قرآن كريم دل على عصمة المدعية . وعلى ضوء هذه الخاصية التي يمتاز بها العلم بصدق الزهراء يمكننا أن نفرر أن البينة التي قد تحطأ اذا كانت دليلا شرعيا مقتضيا للحكم على طبعه فالعلم الذي لا يحطأ وهو ما كان بسبب شهادة الله تعالى بعصمة المدعي وصدقها اولى بأن يكتسب تلك الصفة في المجالات القضائية .

وعلى أسلوب آخر من البيان نقول : ان القرآن الكريم لو كان قد نص على ملكية الزهراء لفدك وصدقها في دعوى النحلة لم يكن في المسألة متسع للتشكيك لمسلم او مساع للتردد لمحكمة من محاكم القرآن ومن الواضح أن نصه على عصمة الزهراء في قوة النص على النحلة

لأن المعصوم لا يكذب فاذا ادعى شيئا فدعواه صائبة بلا شك ولا فرق بين النص على العصمة والنص على النحلة فيما يتصل بمسألتنا سوى ان ملكه الزهراء لفدك هي المعنى الجرفي للنص الثاني والمعنى المفهوم من النص الاول عن طريق مفهومه الجرفي •

٤ - ونقول من ناحية أخرى : ان احدا من المسلمين لم يشك في صدق الزهراء ولم يهتمها بالافتراء على ابائها وانما فام النزاع بين المتنازعين في ان العلم بصواب الدعوى هل يكفي مدركا للحكم على وفها او لا ؟ فلندع آية الطهبر ونفرض ان الخليفة كان كأحد هؤلاء المسلمين وعلمه بصدق الزهراء حينئذ ليس حاويا على الامنياء الذي أشرنا اليه في النقطة السابقة بل هو علم في مصاف سائر الاعتقادات التي تحصل بأسباب هي عرضة للخطأ والاشباه رما بدل حينئذ جعل البينة دليلا على مشاركته لها في تلك الخاصة لأنه ليس أولى منها بذلك كما عرفنا سابقا •

ولكن الحاكم يجوز له مع ذلك - أن يحكم على وفق علمه كما يجوز له أن يستند في الحكم الى البينة بدليل ما جاء في الكتاب الكريم مما يقرر ذلك اد قال الله تعالى في سورة النساء : (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) وقال في سورة الاعراف : (من خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون) اي يحكمون •

وللحق والعدل ملاحظتان : -

(احدهما) الحق والعدل في نفس الامر والواقع •

(والاخرى) الحق والعدل بحسب الموازين القضائية فالحكم على وفق البينة حق واعندال في عرف هذه الملاحظة وان اخطأت وبعاكسه الحكم على وفق شهادة الفاسق فانه ليس حقا ولا عدلا وان كان الفاسق صادقا في خبره •

والمعنى بالكلمتين في الآيتين الكريميتين ان كان هو المعنى الاول للحق والعدل كاتتا دالتين على صحة الحكم بالواقع من دون احتياج الى البيئة فادا احرز الحاكم ملكية شخص لمال صح له أن يحكم بذلك لأنه يرى انه الحق النابت في الواقع والحقيقة العادلة فحكمه بملكية ذلك الشخص للمال مصداق في عفيده للحكم بالحق والعدل الذي امر به الله تعالى • واما اذا فسرنا الكلمتين في الآيتين بالمعنى الثاني اعني ما يكون حقا وعدلا بحسب مفايس القضاء فلا يستقيم الاستدلال بالنصين القرآنيين على شيء في الموضوع لأنهما لا يثبتان حينئذ ان أي قضاء يكون قضاء بالحق وعلى طبق النظام واي قضاء لا يكون كذلك •

ومن الواضح ان المفهوم المبادر من الكلمتين هو المعنى الاول دون الثاني وخاصة كلمه الحق فانها متى وصف بها شيء فهم أن ذلك الشيء أمر ثابت في الواقع فالحكم بالحق عبارة عن الحكم بالحقيقة الثابتة • ويدل على ذلك الاسلوب الذي صيغ عليه الآية الاولى فانها تضمنت امرا بالحكم بالعدل وواضح جدا ان تطبيق التنظيمات الاسلامية في موارد الحصومة لا يحتاج الى امر شرعي لان نفس وضعها فانونا للقضاء معناه لزوم تطبيقها فلا يكون الامر بالتزام القانون الا تكرارا او تنبيها وليس من حقيقه الامر في شيء واما الامر بالحكم على طبق الحقائق الواقعية سواء أكان عليها دليل من بيئة وشهادة اولا فهو من طبيعة الامر بالصميم لانه تقرير جديد يوضح أن الواقع هو ملاك القضاء الاسلامي والمحور الذي ينبغي ان يدور عليه دون أن يتقيد بالشكليات والادلة الخاصة (١) •

(١) واذا أردنا أن نترجم هذا المعنى الى اللغة العلمية قلنا : ان الامر على التقدير الثاني يكون ارشاديا اذ لا ملاك للامر الملوي في المقام حيث ان المأمور اتباعه هو بنفسه كاف للبعث والتحريك فظهور الامر في الملوية يقضي بصرف لفظة العدل الى المعنى الاول لجواز الامر مولويا باتباع الواقع فيما اذا دلت عليه البيئة خاصة وامكان الامر باتباعه مطلقا •



واذن فالآيتان دليل على اعتبار علم الحاكم في قوانين القضاء
الاسلامية (١) .

واضف الى ذلك ان الصديق نفسه كان يكتفي كثيرا بالدعوى
المجردة عن البينة فقد جاء عنه في صحيح البخاري (١) ان النبي (ص)
لما مات جاء لأبي بكر مال من قبل العلاء بن الحضرمي فقال . من كان له
علي دين أو كانت قبله عدة فليأتنا قال جابر : وعدني رسول الله (صلى
الله عليه وآله وسلم) ان يعطيني هكذا وهكذا وهكذا فبسط يده ثلاث
مرات فعد في يدي خمسمائة ثم خمسمائة ثم خمسمائة .

وروي في الطبقات (٢) عن ابي سعيد الخدري انه قال : سمعت
منادي ابي بكر ينادي بالمدينة حين قدم عليه مال البحرين : من كانت له
عدة عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فليأت ؟ فيأتيه رجال
فيعطيه فجاء أبو بشير المازني فقال : ان رسول الله (ص) قال يا ابا بشير
اذا جاءنا شيء فأتنا ، فاعطاه ابو بكر حفتين او ثلاثا فوجدوها الفسا
وأربعمائة درهم .



وانا أعذر عن عدم استعمال الاصطلاحات العلمية الدائرة في مباحث
المنطق والفلسفة والفقه والاصول - الا حين اضطر الى ذلك اضطرارا -
لانني أحاول ان تكون بحوث هذا الفصل مفهومة لغير المتخصصين في تلك
العلوم .

(١) ان قيل : ان الحديث الوارد عن اهل البيت فيمن قضى بالحق وهو
لا يعلم الحكم باستحقاقه للعقاب يدل على عدم كون القضاء من آثار الواقع
فيدور الامر بين صرف هذه الرواية عن ظهورها في عدم نفوذ الحكم وحمل
العقاب فيها على التجري وبين صرف الكلمتين الى المعنى الثاني قلت : لا
وجه لكلا التأويلين بل الرواية المذكورة مقيدة للآيات بصورة العلم فيكون
موضوع القضاء مركبا من الواقع والعلم به وبتعبير آخر انه من آثار الواقع
الواصل .

(٢) ح ٣ ص ١٨٠ .

(٣) ح ٤ ص ١٣٤ .

فاذا كان الصديق لا يطلب احدا من الصحابة بالبينة على الدين
او العدة فكيف طلب من الزهراء بنة على النحلة •

وهل كان النظام القضائي يخص الزهراء وحدها بذلك أو ان
الظروف السياسية الخاصة هي التي جعلت لها هذا الاختصاص ؟

ومن الغريب حقا ان تقبل دعوى صحابي لوعده النبي (صلى الله عليه
 وآله وسلم) بمبلغ من المال وترد دعوى بضعة رسول الله (ص) لانها لم
تجد بينة على ما تدعيه •

واذا كان العلم بصدق المدعي مجوزا لاعطائه ما يدعه فلا ريب أن
الذي لا تنهم جابرا او ابا بشير بالكذب يرتفع بالزهراء عن ذلك ايضا
واذا لم يكن اعطاء الخليفة للمدعي العدة ما طلبه على أساس الأخذ
بدعواه وانما دعاه احتمال صدقه الى اعطائه ذلك وللإمام ان يعطي اي
شخص المبلغ الذي براه فلماذا لم يحتط بشئ هذا الاحتياط في مسألة
فدك •

وهكذا انجز الصديق وعود رسول الله (ص) النبي لم تقم عليها بينة
وأهمل هبانه المنجزة التي ادعنها سيدة نساء العالمين وبقي السؤال عن
الفارق بين الديون والعداات وبين نحلة بلا جواب مقبول •

• — ولنستأنف مناقشتنا على اساس جديد وهو : ان الحاكم
لا يجوز له الحكم على طبق الدعوى المصدقة لديه اذا لم يحصل المدعي
على بينة تشهد له ونهمل النتيجة التي اتتهنا اليها في النقطة السابقة
ونسأل على هذا التقدير •

اولا — عما مع الصديق من التقدم بالشهادة على النحلة اذا كان
عالما بصدق الحوراء سلام الله عليها اذ يضم بذلك شهادته الى شهادة علي
وتكتمل بهما البينة ويثبت الحق واعتباره لنفسه حاكما لا يوجب سقوط

شهادته لأن شهادة الحاكم معتبرة وليست خارجة عن الدليل الشرعى الذي افام البيئة مرجعا في موارد الخصومة •

وثانيا - عن التفسير المقبول لاغفال الخليفة للواقع المعلوم لديه بحسب الفرض • ولاجل توضيح هذه النقطة يلزمنا أن نفرق بين أمرين اختلطا على جملة الباحثين فى المسألة :

(أحدهما) الحكم للمدعي بما بدعيه •

(والآخر) تنفيذ آثار الواقع وإذا افترضنا ان الاول محدود بالبيئة فالآخر واجب على كل هدير لانه ليس حكما لحدود بحدوده فإذا علم شخص بأن بيته للآخر فسلمه لمالكه لم يكن هذا حكما بملكته له وإنما هو اجراء للاحكام التي نص عليها القانون • كما ان الحاكم نفسه اذا ادعى شخص عنده ملكية بيت وكان في خياره او دل الاستصحاب على الملكية المدعاة فاللازم عليه وعلى غيره من المسلمين ان يعبروا هذا البيت كسائر ممتلكات ذلك المدعي وليس معنى هذا ان الحاكم يحكم بأن البيت ملك للمدعي مستندا الى قاعدة البد او الاستصحاب وان المسلمين احدوا أنفسهم باتباع هذا الحكم بل لو لم يكن بينهم حاكم للزمهم ذلك وليس الاستصحاب او اليد من موازين الحكم في الشريعة وإنما بوجيان تطبيق احكام الواقع •

والفارق بين حكم الحاكم بملكية شخص لمال أو فسفه ونحوهما من الشؤون التي تتسع لها صلاحات الحاكم وبين تطبيق آثار تلك الامور هو : امتياز الحكم بفصل الخصومة ونعني بهذا الامتياز ان الحاكم اذا اصدر حكما حرم نقضه على جمع المسلمين ولزم اتباعه من دون نظر الى مدرك آخر سوى ذلك الحكم •

وأما تطبيق الفاضلي لآثار الملكية عمليا بلا حكم فلا يرتب عليه

ذلك المعنى ولا يجب على كل مسلم متابعته واجراء تلك الآثار كما يجريها
الا اذا حصل له العلم بذلك كما حصل للحاكم .

والنتيجة : ان الخليفة اذا كان يعلم بملكية الزهراء لفدك فالواجب
عليه ان لا يتصرف فيها بما تكرهه ولا ينزعها منها سواء اجاز له ان يحكم
على وفق علمه اولا . ولم يكن في المسألة منكر بازع الزهراء ليلزم طلب
البين منه واستحقاقه للمال اذا اقسم لأن الاموال التي كانت نطالب بها
الزهراء اما ان تكون لها او للمسلمين . وقد افترضنا ان ابا بكر هو
الخليفة الشرعي للمسلمين يومئذ واذن فهو ولبهم المكلف بحفظ حقوقهم
وأموالهم فاذا كانت الزهراء صادقة في رأيه ولم تكن في الناس من
ينازعها فليس للخليفة ان ينتزع فدكا منها وتحديد الحكم بالينة خاصة انما
يحرم الحكم ولا يجز انتزاع الملك من صاحبه .

واذن فعدم جواز حكم الحاكم على وفق علمه لا يخفف من صعوبة
الحساب ولا يخرج الخليفة ناجحا من الامتحان .

(محمد باقر الصدر)

